مصر.. بعيون نسائية أوروبية

مصر.. بعيون نسائية أوروبية

عرفة عبده علي



سلسلة
حكاية مصر
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• مصر .. بعيون نسائية أوروبية
• عرفه عبده علي
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2016م
19.5X13.5سم
•تصميم الغلاف: رضوى عبد المنعم
•المراجعة اللغوية:رجب صبري الصعيدي
• رقم الإيداع:
• الترقم الدولى:
• المراسلات:
باسم/ مدير التحرير
على العنوان التالى: 16أ شارع أمين
سامى- قصر العينى
القاهرة-رقم بريدى 11561
ت:22794789.
•الجمع والإخراج:
وحدة التجهيزات الفنية
الإدارة العامة للنشر
•الطباعة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب

39

سلسلة شهرية للشباب تعنى بنشر تاريخ مصر

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٠٧/ ٢٠١٧
I. S. B. N 978 - 977 - 92 - 09494 - 4

تقديم

أرض الفراعنة الجميلة حيث أطلال المجد والعز القديم وآلاف الحكايات والأساطير التي شكلت سحر مصر، وخصوصيتها، فمارست سحرها – المختلف عن سحر الشرق عمومًا – على زوارها وعشاقها من الرحالة والأدباء والفنانين والشعراء والمغامرين الأوروبيين، حيث كان الشرق لا يزال شرقًا.. وكانت الدهشة لا تزال دهشة !.. وكان للمناظر غموض السحر الذي يقود الخُطَا في رحيلهم اليومي المغامر إلى عبق الصحاري وصخب الزحام وواجهات الحوانيت وروائح التوابل والثياب المزركشة وفنون العمارة وآثار الماضي العريق.

ومنذ بدايات القرن التاسع عشر – العصر الذهبي للرحلة – توافد على مصر رحالة من مختلف البلاد الأوروبية، من أجل تقديم معرفة ناجزة عن "الآخر" وطرح فكرة التنوع الحضاري، فأنتجوا مدونة ضخمة خلال ترحالهم من كتب ويوميات ومذكرات وحكايات وتقارير وصور وخرائط، أمدتنا بمادة شائقة وممتعة شكلت نوعًا من الاستمرارية المنظمة لعلم الاستشراق، وتركوا لنا أدق وأجمل الآثار العلمية والأدبية عن مصر، شملت تفاصيل بالغة الأهمية عن الأوضاع السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والدينية.

وقد شهد عصر محمد علي باشا تحوّلًا في اهتمامات الرحالة والأدباء الإنجليز بمصر، فبدأوا ينصرفون عن دراسة الآثار الفرعونية، إلى جوانب أخرى من "سحر مصر" مثل الاهتمام بالطبيعة المصرية، القاهرة الشرقية وأخلاق المصريين وعاداتهم.. وكان صعود محمد علي قد أدخل الأحوال الاجتماعية لمصر في دائرة الضوء، وازداد توافد الرحالة لبحث النظام الجديد والكتابة عنه، وأخذت جوانب كثيرة تستحوذ على اهتمام من يرغبون في زيارة مصر، كما اتسعت – نظرة الغريب – إلى مصر، فبفضل الأبحاث العديدة التي كانت تجرى عنها وبالتالي طول مدة الإقامة بها: تعمقت المعرفة وأصبحت تجربة قريت مصر من النفوس، فلم يعد الرحالة يعتبرها مجرد خلفية لتأملاته في الأخلاق والحياة الشرقية، كما أن علم المصريات أنضج معرفته بمصر وتاريخها العريق وأثارت فضوله؛ لأنها أصبحت في متناوله، كما أنها ولدت الحب كذلك ثم ما عُرف بـ"الإيجيبتومانيا" مما ساعد على توسيع الاهتمامات، فلم يعد الرحالة يزور مصر من أجل المعلومات، وإنما من أجل الرحلة ذاتها، وبما أنه لم يعد ملتزمًا بالعودة إلى بلاده بأخبار جديدة عن آثار مصر، فقد تجول حيثما شاء في أي مكان: فالمعرفة ولدت الحرية !

رحل هؤلاء إلى بلادنا، بدافع من روح المغامرة وحب الاستطلاع، وبعضهم كان مشحونًا بالحنين نحو وطنه "الحقيقي" الذي ينتمي إليه بروحه، نحو "مصر" وصورتها الأثيرة في قلبه وروحه، رسمت ملامحها قراءاته الكلاسيكية في إطار من الأحلام والرؤى الذاتية.

وكتابات بعض هؤلاء الرحالة حظيت بشهرة هائلة في أوروبا،

فأسهموا – وهم يخوضون غمار عالم آخر غريب مختلف – في التعريف بآثار بلادنا وهي تلوذ بالخلود.. وبشعب عاش تجارب تاريخية فريدة..

وبقدر ما سحرت "مصر" هؤلاء الرجال.. اجتذبت وسحرت أيضًا نساء أوروبيات !.. فقد كان معروفًا أن الترحال في بلاد الشرق عمومًا – في ذلك العصر – يتطلب رجالًا ذوي قدرات خاصة ومهارات نفسية نادرة وتتوافر لديهم القدءرة على مواجهة الصعاب والأهوال !..

ولنا أن نتساءل : ما هي دوافع هؤلاء الرحالات الأوروبيات وأهدافهم في الشرق العربي ومصر خاصة.. أكان ترحالهم مدفوعًا بهوس أم هاجس؟.. أو بحثًا عن مغامرة فذة.. أو أنه جاء أحيانًا بدافع العلم والاستكشاف والسياسة أو غير ذلك.. فمما لا شك فيه أنهن تأثرن في البداية بالحكايات والروايات المثيرة عن الشرق الغامض الساحر وبلاد ألف ليلة وليلة.

وتحتل الأهداف السياسية مكانة خاصة لاستكشاف "عالم راكبي الإبل وحاملي السيوف" وربما بقصد تحويل سلوكيات المرأة العربية المسلمة لتحاكي السلوكيات الأوروبية وتحويل المجتمع من التقاليد الشرقية لينفتح على تقاليد الغرب.. وقد أتاح لهن ولوج "عالم الحريم" وصف أدق لجانب غاية في الأهمية في الحياة الاجتماعية. فلم يكن مسموحًا للرجال مجرد الاقتراب منه سواء في خيمة أو بيت أو دار أحد الأثرياء أو قصر من قصور الحكام، إلا أن انطباعات أكثرهن كانت انتقادية في أغلب الأحيان باستثناء "لوسي دف جوردون" لطول تجربتها ومعايشتها مجتمع صعيد مصر. فزيارات هؤلاء الرحالات

وقرينات القناصل والسائحات، كانت قصيرة وغالبًا ما كانت تتسم بسوء فهم متبادل وأحاديث متكلفة عن طريق الترجمة وملاحظات غير دقيقة.. غير أن تجربة "صوفيا لين بول" كانت أكثر ثراء، فقد حظيت بشرف زيارات متكررة لـ"الحريم العالي" حريم الأسرة المالكة، والعائلات الراقية، والاقتراب بشدة من هذا العالم بل ومعايشته لأيام وليال، فكانت أكثر فهمًا للسلوكيات والعادات والتقاليد، وبالتالي أكثر تقديرًا لنساء مصر.

ومن الناحية السياسية، فقد قامت بعض الرحالات بخدمة بلادهن بشكل فاق قدرات كثير من الرجال؛ الدبلوماسيين والعسكريين، وعلى رأسهن "جيرترود بل" التي لعبت أخطر الأدوار في تاريخ العرب.. وبعضهن تركن بصمات واضحة في تاريخ أدب الرحلة، وإذا كانت كتابات بعض الرجال لم تسجل بدقة أحوال البلاد والعباد، بل كانت مجرد انطباعات وتفسيرات ذاتية، فإن الرحالات الأوروبيات سجلن انطباعاتهن وآرائهن إلى جانب نقد ما لا يروق لهن والاهتمام بأدق التفاصيل كـ"طبيعة نسائية" في كل زمان ومكان !.. وبعض انطباعاتهن تخللها إيحاء إلى القراء بالتعاطف مع أهل بلادنا مثل الليدى "آن بلنت" و "وينفريد بلاكمان"، إلى جانب ما أثرين به كتاباتهن من معارف علمية ومادة أثنوجرافية غزيرة من حياة وعادات المصريين في فضاء القرن التاسع عشر.

وشغفي بأدب الرحلة ودراسته، أوحى لى بفكرة هذا الكتاب – عندما لاحظت ضعف الاهتمام بكتابات الرحالات الأوروبيات، ولم يكن من اليسير – وقد راودتني هذه الفكرة – أن أجمع شتات بعض

من كتابات هؤلاء الرحالات من بين بحر زاخر في أدب الرحلات.. كانت إقامتهن في بلادنا كإطلالة النجوم، ومذكراتهن ويومياتهن وسيرتهن ستبقى جزءًا من تاريخ مصر ومن تراث الإنسانية. ألهَمتهن بلادنا وشواهد مجدها القديم وتقاليد شعبنا تلك الأفكار التي فاضت على أقلامهن فكتبن وأبدعن - ومنهن الأديبات الشواعر- وميزت انطباعات بعضهن مثل الليدى "دف جوردون" وداعة نفس طيبة ومودة صافية، بينما تضمنت ملاحظات البعض الآخر مثل الكونتيس "دى روبرسا" ومسز "اولمب" نقد لاذع أو تحريض سافر، وامتزجت انطباعات "هارييت مارتينو" بخيال متأمل انساب مع أسلوبها الرقيق الشفاف !.. وكتابات "جيرترود بل" و "سوزان فوالكان" ومسز "كاري" تكشف عن شخصياتهن ودوافعهن بأكثر مما قدمن من وصف للبلاد والعباد !

وفي تقديري، أن مدونة أدب الرحلة تمثل أرقى كتابات العصر، وهذه النوعية اختفت وجرفها الطوفان - المطبوعات السياحية - بما تتضمنه من معلومات سريعة، جاهزة، موجزة، مبسطة يسهل استقرارها في ذهن السائح !

بينما أدب الرحلة زاخر بالمعارف العلمية في أسلوب شديد التنوع، يجمع بين الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة.. أضف إلى ذلك، أن كتابات الرحالات الأوروبيات : بعضها كان كلاسيكيًا يعني بالعبارات الرقيقة في نسيج أدبي راق مع التزام النزاهة والأمانة دون اتخاذ أحكام عامة.. وبعضها كان رومانسيًا بعيدًا عن الواقع أحيانًا.. إلا أن هذه الرومانسية الراقية كانت شديدة الحفاوة بالمشاهد المصرية الخالصة

وهي تعانق أجمات النخل الباسقات تحت الأضواء الملونة لشمس الأصيل، والجلال المهيب للأهرامات وأبو الهول – حارس الخلود – ومعابد طيبة والنوبة وايزيس المقدسة، وحفلت يومياتهن ورسائلهن بصور مدهشة اختلط فيها ملوك مصر القديمة والحديثة بأطلال المجد القديم، وبحياة صاخبة على ضفتي النهر المقدس متباينة الأشكال والألوان.. رأين في كل ذلك، أو بعض منه : رموزًا حية للروح المصرية الخالدة التي أبدعت أول و أعظم حضارة في التاريخ الإنساني.

واستحضر مقولة "بيير لوتى" وهو واقف في إعجاب يتساءل: "أى جنس الذي انتبه النيل على شاطئيه" ويتمنى للشعب المصرى أن يستيقظ : "فهو الذي شهد له الماضي بأعظم الأعمال يوم كان العالم كله مازال يحبو على التراب – لعلها غفوة ولكن طال عليها الأمد – والمصريون عاشوا بالأمس في رفقة الملوك وسط المجد والخلود"!.. وظل "لوتى" يأمل أن يبعث الشعب المصري من جديد ويطالع العالم بمعجزات جديدة !

وما بين الكنوز الحجرية واللآلئ الفكرية، تجتمع ذكريات مصر الساحرة في كتاب رحالة.. ولوحة استشراقية تبهر العين والعقل.. وفي صورة ثبتت لحظة زمنية فمنحتها لمسة الخلود.. وكلها – حروفًا وخطوطًا وألوانًا – تجسد الحنين إلى مصر المفقودة !

إليزا فاى
بين شواهد مجد الفراعنة والخيال الأوروبي !

في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بدأ استخدام البخار في النقل البحري . فتضاءلت المسافات وتزايد عدد الرحالة الذين يقصدون مصر للاستجمام والاستمتاع بآثارها ومناخها الدافئ شتاء، وظلت مصر هي المعبر الأمثل للعاملين في الهند وزائريها، والمستكشفين في أدغال أفريقيا. وكانت بواخر شركة "بى آند أو" ثم شركة "توماس كوك" تجوب موانئ الإمبراطورية العثمانية من أثينا إلى أزمير إلى القسطنطينية ثم بيروت ويافا في الشام ومنها إلى الأسكندرية. واتسع مجال نشاط شركة توماس كوك السياحية فنظمت رحلات نيلية من القاهرة إلى أسوان.

والرحالة البريطانية "إليزا فاى" رافقت زوجها المحامي البريطاني خلال رحلته البحرية إلى الهند لإنجاز بعض الأعمال. فانتهزت الفرصة لزيارة القاهرة والقيام برحلة في النيل إلى صعيد مصر. في أواخر عام ١٧٧٩م. ودونت مشاهداتها وانطباعاتها في كتاب بعنوان "رسائل من الهند" نشر في عام ١٨٢١م وأحدث ضجة في بريطانيا !

كانت انطباعات "إليزا فاى" تجسد سماتها الشخصية. كما كانت على وعي باللحظة التي مست شغاف قلبها حين كانت تميل

إلى تجسيد الشرق الذي تعودت أن تتأمله من خلال الكتب ولوحات الفنانين المستشرقين.. وتمثل لها – سحر مصر – في قدرتها على استحضار أفكار وصور أخلاقية عن الماضي، خاصة في وقفتها التأملية أمام معجزة الأهرامات. فكتبت :

"أستطيع أن أتخيل نفسي مواطنة في عالم زال منذ عهد طويل، فمن يستطيع أن ينظر إلى هذه الصروح الضخمة المشيدة منذ ما يزيد على الثلاثة آلاف سنة دون أن يرجع بخياله إلى ذلك الماضي ويعيش في تلك الأيام التي بادت وغرقت في النسيان مثل حكاية تحكى"!

حفلت انطباعات إليزا بمثل هذه التأملات في الطبيعة الزائلة للمجد البشري، وولدت في نفسها مشاعر دينية وصلت أحيانا إلى درجة النشوة. فالقناع الفرعوني الذي كان الرحالة يرون مصر من خلاله، أضفى على خيالهم سعادة خالصة. لم تقتصر على التأملات الأخلاقية الناتجة عن مقارنة الحاضر بالماضي في إطار حلم رائع، فكتبت:

"جذبتني المناظر الطبيعية حولي لطرافتها، واختمر لدي هذا الإحساس عندما نظرت إليها على أنها المكان الذي أقام فيه بنو إسرائيل، وتذكرت قصة يوسف الجميل وإخوته.. قصة رائعة وفريدة.. عندما جبت الضفاف التي لجأ إليها يعقوب في شيخوخته شعرت كما لو كنت في حلم، فبدا وجودي هنا رائعًا"!

وكتبت وهي في "دهبية" تبحر في النيل : " عندما بدأ ضوء النهار يتحول رويدًا رويدًا إلى شفق رقيق، انساب الجمال على صفحة

النهر، تاركة العقل يسبح في أحلام اليقظة الناعمة الممتعة. لقد توحدت المناظر الشرقية بالخيال الأوروبي فأخرجت مشهدًا ساحرًا لا يصدق"!

اكتشفت " إليزا فاى " قدرتها الكامنة على الوصف فاستخدمت أسلوبًا أدبيًا رفيعًا عند نشر يومياتها، وامتزاج أفكارها بالمشاهد الشرقية ولد إلهامًا ومادة ثرية للإبداع، فكتبت : " يا لها من سعادة في نسيم الليل البارد، أن تنساب في النيل بجوار معابد " إسنا، وإدفو، وكوم امبو " .. متعة تؤدي إلى مباهج أخرى : الحركة التلقائية – ومع ذلك كافية للوصول صخور أسوان الوردية – في جدول مصر الرومانسي "!

كانت أمنيتها زيارة معبد " أبي سمبل" الشهير جنوبي أسوان بنحو ٢٨٠ كيلومترًا وقد نُحِتَ داخل صخور الجبل وكادت قاعدته تمس مياه النيل الجارية (رفع المعبد بأكمله وأعيد تركيبه على ارتفاع ٤٦ مترًا عن مكانه القديم في إطار المشروع العالمي لإنقاذ آثار النوبة) ووصفت " إليزا فاى " المعبد بأنه " تحفة معمارية نادرة.. وتقف خلف تماثيل رمسيس الثاني العملاقة غير بعيد : زوجته الأميرة "نفرتاري" وقد كشف تمثالها عن ملامحها الجميلة وقامتها وهيئتها الملكية"..

كذلك حرصت على زيارة "البر الغربي" وتجولت في وادي الملوك ووادي الملكات والدير البحري ومعبد حتشبسوت، وكتبت: " يعد معبدها نموذجًا رائعًا للتوافق الفني بين الجبل والعمارة.. ليكتمل ذلك المثلث الذهبي للملكات الجميلات في عصور مصر الفرعونية : نفرتيتي، نفرتاري، حتشبسوت "!

كانت "إليزا فاى" مولعة بتأمل لوحات الفنانين المستشرقين التي

أبدعوها عن مصر، قبل أن تزورها، ووجدت أن مصر في هذه اللوحات الملونة : تسطع من اللون والضوء، وفي مصر "وجدت الشمس تشعل اللون، والنور ينبع من كل أرجائها ويشع من كل شيء" !

سوزان فوالكان.. بنت الشعب !

لقد سحرت مصر الـ" سان سيمونيين "-(1)- من خلال ماضيها العريق ومستقبلها الواعد. فكانوا ينشدون التعاون الأخوي بين كافة الشعوب وبين سائر الطبقات الاجتماعية وذوبان الأجناس في بعضها بعضًا. وكانت لهم سياستهم الخاصة تجاه الشعوب الإسلامية اتخذت شكل فلسفة إسلامية. واتخذوا من مقولة " نابليون بونابرت" الشهيرة شعارًا لهم: " عن طريق مصر وحدها يمكن أن تتلقى شعوب وسط أفريقيا النور والرفاهية ".. وكانت "سوزان فوالكان" ضمن إرسالية " الأخوات السان سيمونيات " عام ١٨٣٤م. وعاشت في مصر تجربة ثرية حتى نهاية عام ١٨٣٦م.

١- ينتسب السان سيمونيون إلى الكونت "هنرى دى سان سيمون – Claude Henri de Saint Simon" في بدايات القرن التاسع عشر. وكان دائم التفكير في أفضل الوسائل للنهوض بالمجتمع الإنساني كله. ونبذ الحروب. ونشر السلام. وتوفير الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن. آمن أتباعه بفكرته وانضم إليهم كثيرون من خريجي مدرسة "الهندسة العليا – Ecole Polytechnique" الذين عَدَّهم الأقدر على تحقيق أفكار السان سيمونيين وتطبيق مشروعاتهم. وقد أتوا إلى مصر عام ١٨٣٣م بهدف تنطبيق مشروع القناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط.. وعَدُّوا هذا المشروع واجب التطبيق على أيديهم وأن هذا الخط من المياه الزرقاء هو " إشارة كبرى للسلام والحب بين القارات. وهمزة الوصل بين البشر" !

مع بدايات القرن التاسع عشر، اشتهرت الطبيبة الفرنسية "سوزان فوالكان " مفكرةً وكاتبةً دافعت عن حقوق المرأة ورفعت لواء تحررها.. وفي مصر، ارتبطت "سوزان" بصداقة قوية بالفنان الفرنسي السان سيموني" فيليب ماشيرو " الذي آثر الإقامة بالقاهرة واتخذ زوجة مصرية بعد أن اعتنق الإسلام، وأنجب منها أربع بنات : هانم، وزهرة، وحميدة، وأسماء.. وأصبح يدعى " محمد أفندي " وأسلم معه بعض السان سيمونيين آخذين بعادات الإسلام وتقاليده.

كانت هذه السان سيمونية الشابة تقوم بأعمال الغسيل والكواء لزملائها وزميلاتها، وتتدرب على أعمال التمريض، وتتعلم اللغة العربية. ألحقها د. كلوت بك كممرضة بمستشفى الأزبكية"شريطة أن ترتدي زِيَّ رجلٍ "!..

وقد كتبت " سوزان" صفحاتٍ مؤثرةً عن وباء الطاعون الرهيب عام ١٨٣٥م، الذي راح ضحيته في القاهرة وحدها أكثر من ٣٥ ألفًا.. وسرعان ما تبينت "سوزان" صعوبة المهمة: حالة البلاد العارمة، وحالتها الخاصة كامرأة نصف متحررة تعيش في بلد شرقي وكتبت:"يا إلهي.. هل سترد هذه الأرض العربية إلينا في المستقبل: كل ما أعطيناها من نبل وحب وإخلاص"؟! وتعد مذكرات " سوزان فولكان " الأكثر شجنًا من بين ما كتب في أدب الرحلة عن مصر..

وفي مذكراتها، أطلقت " سوزان" على نفسها لقب " بنت الشعب".. وقد عُنيت المكتبة الوطنية في باريس والأكاديمية الفرنسية بهذه المذكرات والتي اعتبرت وثيقة نادرة لتلك الفترة..

وقد بدأت ذكرياتها من الأسكندرية، والظروف القاسية للعمال

المصريين خلال حفر قناة المحمودية، وترصد مظاهر طغيان الشرق على حياة الشعب، فتكتب :" إن هذا الشعب يبدو عبقريًا في صمته أو في صمته العبقري" عندما يواجه صعوبة الحياة بلفظه " الله كريم"..

وفي القاهرة، رصدت "سوزان" حياة المرأة المصرية والتي اعتبرتها "الوحيدة التي نفذت من هذا الستار الحديدي الذي أحاط بحياة المصريين "!

وتدون انطباعاتها عن المرأة، فتكتب :" النساء أجسادهن لا بأس بها، فهن لا يخضعن لأي نوع من القهر، وبالتالي تنمو أجسادهن بشكل طبيعي تجعلها أشبه بانطلاق النخيل.. والفلاحة المصرية تضع البرقع، ولكن خلف هذا القناع تبدو فتنة العيون واللون البرونزي المحبب للعيون.. والمرأة المصرية – عامة– قد لا تكون جميلة ولكنها تتميز بالرقة والجاذبية والابتسامة البيضاء والضحكة الصافية الصادرة من القلب، مما يجعل من هذا الجمال – المتواضع – إشراقة فاتنة.. و القرويات أذرعهن قوية وأقدامهن صلبة ومشيتهن نبيلة مترفعة.. والقروية تنساب في مشيتها كما ينساب النيل، ومن الغريب أنها تحمل الكثير فوق رأسها ومع ذلك لا يهتز جسدها.. فتبدو راسخة فوق الأرض رسوخ الأهرامات!.."

لقد كان التعرف على المرأة المصرية أحد أهدافها، في إطار الدعوة التي تبنتها في باريس " حرية المرأة " وجابت من أجلها الآفاق مثل "جورج صاند" و "دى ستايل".. وكتبت "سوزان" : " إن ما يلفت النظر في المرأة المصرية حرصها على كرامتها وسلوكياتها، حرصها على حماية جسدها.. محجبة.. ليس لها مكان معترف به في

العلاقات الاجتماعية.. أيها الفلاسفة عليكم أن تعملوا لتحرير المرأة حتى تستطيع أن تنعم بشمس الحرية دون قهر"!

ولاحظت "سوزان" أن البنت المصرية قد تتزوج ولم تصل بعد إلى مرحلة البلوغ.. وأن أربعة أجيال من نساء الأسرة الواحدة يذهبن إلى النيل ليملأن جرارهن..

وعاصرت "سوزان" سنوات وباء الطاعون الذي حل بمصر، وبينما شاهدت هلع الجاليات الأجنبية من انتشار هذا الوباء، لاحظت أن المصريين من مسلمين وأقباط يتقبلون الوباء بصبر ورضا بقضاء الله..

ثم انتقلت "سوزان" إلى وصف الحمامات الشعبية التي اشتهرت بها القاهرة، وحرص كثير من الرحالة الأوروبيين على تضمين كتاباتهم مشاهداتهم لهذه الحمامات-(٢)-. فكتبت : " في الحمام تشرق المرأة، حيث لا قيود ولا حجاب ولا رقابة أو قهر.. الحمامات في معظمها تنتشر أسفل المبانيس، والحرارة فيها ترتفع تدريجيًا، وكلما توغلت في قاعة الحمام تشعر بازدياد الحرارة، وتتوسط كل حمام نافورة جميلة من المرمر، تتجدد فيها المياه دون انقطاع، وقد ترتفع الحرارة إلى أربعين

٢- تشكل الحمامات العامة عنصرًا أساسيًا في بنية المدينة الإسلامية، وقد أمدنا الرحالة عبد اللطيف البغدادي في نهاية القرن السادس الهجري بأدق وصف لحمامات القاهرة " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" دار ابن قتيبة، دمشق ١٩٨٣م، واعتبر إدوارد لين الاستحمام "من أبرز وسائل الترفيه التي تدخل البهجة إلى قلوب المصريين" وقال بإن عددها في القاهرة سبعة عشر حمامًا عامًّا، راجع : خطط المقريزي جـ ٢، خطط علي باشا مبارك جـ ٦، وخصص العالم الفرنسي "جومار" فصلًا كاملًا عن الحمامات العامة بالقاهرة : "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل" ترجمة : د. أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨، راجع أيضًا : Pauty, E.: Les Hammamms du Caire, MIFAO, LXIV, Le Caire ١٩٣٣. Raymond, A.: Les Bains Publies au Caire a la fin du XVIII siècle, An. ISL. VIII. IFAO, Le Caire ١٩٦٩.

درجة مئوية ومع ذلك تتقبلها المستحمات بلذة وصبر، وتقوم بالخدمة في الحمامات نساء مدربات يتميزن بالخبرة والفن في التدليك".. ثم تروي تجربتها الشخصية في أحد الحمامات المخصصة للنساء، فكتبت: " حين دخلت بصحبة صديقتي " كلارا" الجميلة، تركنا أجسادنا للمدلكات وشعرنا بمتعة كبيرة، والخادمات يقمن بعملهن وهن مستمتعات وقلن لي : أنت أكثر بياضًا!.. وطلبن أن يقبلن مواضع الأكتاف وظهر أجسادنا.. وبعد الانتهاء، ارتديت ملابسي وأنا أشعر بنشوة هائلة.. وقد لاحظت أن السيدات الأخريات يتجاذبن الحديث والدعابات بصوت عالٍ، وقد أتين معهن بسلال تحتوي بعض الأطعمة والفاكهة، تحظى الخادمات بجانب منها "..

وترى " سوزان" أن هذه الحمامات قد تكون وسيلة للمرأة المصرية للهروب من الملل، وبتشجيع من الرجال على ارتياد الحمامات العامة " فالحمام يضيف للمرأة جاذبية بالإضافة إلى جاذبيتها الشرقية "..

ثم تصف طقوس ما بعد الحمام، فتكتب : " عقب الحمام، يأتي التزيين، بتسوية الأظافر ثم الاكتحال، ثم تحنية الأيدي والأقدام، وتسريح الشعر مرسلًا على الأكتاف، بعد ذلك تتحلى المرأة بالمشغولات الذهبية والجوهرات، ثم تلبس طربوشًا صغيرًا على رأسها، تغرس فيه زهرة وريشة وربما جوهرة أو حجرًا كريمًا، وترتدي سروالًا أحمر من الكشمير، وأرواب طويلة، وتنتعل مركوبًا أو "حذاءً حريمي" يزدان بفصوص من الأحجار الكريمة، خاصة وأن الرجال المصريين يحبون النظر إلى أقدام النساء !.. وقد ترتدي بعض النساء: الحبرة مع رداء من الحرير الأسود الفاخر.. قد يبدو كل هذا خليطًا لافتًا للنظر، لكنه خليط جميل على أية حال"!

كما تناولت بموضوعية وعمق تفاصيل علاقة المرأة بزوجها وأولادها وعلاقاتها الاجتماعية..-(٣)-

وتحت عنوان " المرأة عطر الحياة " برعت "سوزان" في رسم صورة دقيقة لنساء القصور أو حريمها. فكتبت : " توجهت إلى مدير الجيزة، وفي قصره بالقرب من الأهرامات، استطعت أن أنفذ إلى "حريم" قصره.. مررت بعدة أبواب، وعدد من الخصيان، حتى وصلت إلى "الحرملك ".. وجدت نفسي بين سيدات كثيرات، حسبت أنهن حريم "حسن بك " لكن سرعان ما اكتشفت أن أكثر من نصفهن هن زائرات أتين للزيارة والمجاملات الاجتماعية و "الثرثرة"... " ستي فطومة "- كما يلقبونها - كانت دليلي خلال رحلتي في " الحرملك"، شرحت لي العادات والتقاليد المتبعة، ثم قادتني إلى " الست الكبيرة" والدة "حسن بك"، وهي سيدة القصر يميزها جمال جذاب ولها هيبة ووقار، في الخمسين من عمرها تقريبًا، كما أنها موضع احترام الجميع، الكل يدور في فلكها ورهن إشارتها.. " الشبك " يقدم لها بعد انحناءة وقورة.. ثم أخذتني " ستى فطومة " إلى زوجة المدير "الست إنشية" في الرابعة والعشرين من عمرها، جميلة وقوامها رائع.. وبصحبة دليلتي " فطومة" زرت أجنحة السراي: القاعات مرتفعة واسعة، المشربيات الجميلة، الأثاث والتحف والمرايا.. كلها تدل على ذوق رفيع بمفهوم الرفاهية الشرقية .

٣- كتب الرحالة الفرنسي " جيرار دى نيرفال" : " فيما يخص الحياة العائلية، فليس بإمكانك أن تعلم عنها شيئًا سوى عن طريق الأوروبيات اللواتي يتمكن من الولوج إلى الحرم، وإنك لتصاب بخيبة أمل إذا أنت زرتهم، فالمكان يسوده نظام شبيه بذلك الذي يسود البانسيونات المحكمة بشكل جيد، وكل شيء هنا يجري بشكل أفضل مما تفترضه أخيلة الأوروبيين الفاسدة" !

ولاحظت " سوزان" الاحترام والصرامة في التعامل.. فكل يحترم الأكبر والأعلى مرتبة. " فالست الكبيرة" هي " الخازندار" و"فطومة" كبيرة الخدم هي " الأفندي " وعادة ما تصدر الأوامر بالتصفيق !

وعايشت "سوزان" أسرة "حسن بك" – مدير الجيزة – فلاحظت أيضًا تقاليد تقديم الوجبات الرئيسة. الإفطار في الساعة العاشرة.. والأرز واللحوم القوام الأساس لوجبة الغداء. وما بين الإفطار والغداء تقبل النساء على مربى الفواكه والعصائر؛ لذا تنتشر السمنة بينهم. وقد طلبت منها أخت المدير "وصفة للتخسيس" !

وتشير "سوزان" إلى أن مشاريع الزواج قد تبدأ في الحمامت العامة المخصصة للنساء – الملتقى الاجتماعي – وكانت شاهدة على زواج الشاب "عبد الله " التاجر بخان الخليلي بعروسه " عائشة" ذات الخمسة عشر ربيعًا.. فبعد مشاورات النساء. أرسل " عبد الله" بعض عجائز الحي إلى والد الفتاة ليخطبنها.. وليتحول حديث النساء إلى حديث الرجال.. وتسرد "سوزان" السلامات والتحيات والسؤال عن الأحوال استمر لنحو نصف الساعة !...

هل تعرف " عبد الله " التاجر بخان الخليلي ؟

نعم. أعرفه.

إنه شاب طيب ونزيه. وقد أقسم على القرآن أنه يريد ابنتك عائشة على سنة الله ورسوله.

موافق. إن شاء الله يكون فيه خير. وعليه أن يتقدم إلى حضرة القاضي خلال أسبوع..

وتشهد إجراءات الزواج عند القاضي. وقبل أن تتوجه في يوم

الزفاف إلى بيت الزوجية. ذهبت في حشد من قريباتها وصديقاتها إلى الحمام، وبعد طقوس الاستحمام، قمن بتزيينها ووضعهن الحنة في يديها وقدميها، وعطرنها. كما ازدانت بمشغولات ذهبية ومجوهرات.. ونثرن الملح !

ثم تعلق "سوزان" على ذلك بأن " الزوجة في الشرق: ملكة ليوم واحد لا أكثر "..

وتأخذنا "سوزان فوالكان" إلى رصد ظاهرة " طوائف الحرف" في مصر، وربما كانت أول رحالة تتطرق إلى هذا الموضوع.. فتشير إلى أن "الطائفة الحرفية " هي وحدة اقتصادية اجتماعية تشكل مجتمعًا قائمًا بذاته وسط المجتمع المصري عامة، وتضم أصحاب رأس المال والعمال معًا.. كما أشارت إلى أن القاهرة تنقسم إلى طوائف حرفية حتى من الناحية الجغرافية. فكل طائفة تقيم في حيٍّ (حارة) خاص بها، واشتهرت حارات: الصنادقية، النحاسين، المغربلين، الصاغة.. ويمكن تعريف الطائفة. طبقًا للمفاهيم الحديثة، بأنها اتحاد بين أصحاب الحرفة الواحدة في المدينة.. ولكل طائفة " شيخ " كلمته نافذة على الجميع، وكان منصب " شيخ الطائفة " وراثيًا في بعض الأسر.. أو ينتخب من بين كبار رجال الطائفة، وتصدق الدولة على تعيينه..

كذلك حرصت "سوزان" على تقديم رؤيتها لعالم منعم بألوان البيارق والأعلام والأضواء والمجاذيب والأساطير وموروث شعبي هائل، عبر عصور تاريخية متصلة، ومن خلال طقوس شعبية مصرية شديدة الخصوصية.. ورصدت "سوزان" مظاهر الاحتفال بمولد " السيدة زينب " أو " الطاهرة".. وهو من الموالد الشهيرة بالقاهرة. شبهته "سوزان" بلوحة كرنفالية باهرة الألوان زاخرة بالغرائب.. " في الليل،

يتحول المسجد إلى كتلة من الأنوار المبهرة. تنتشر السراجقات حوله وفي الساحة الممتدة أمامه. المطاعم والمقاهي تحتشد بالزوار. صخب الزحام. حلقات الذكر والإنشاد. روائح البخور والشواء تضوع الأجواء. ويصل الاحتفال إلى ذروته في الليلة الختامية حيث تتوافد مواكب الطرق الصوفية. الرايات الملونة تميز كل طريقة مع الإنشاد الجميل.. باعة الحمص والحلوى والبخور والطراطير الملونة ولعب الأطفال والمراجيح. يشاركون بالإعلان عن بضاعتهم في الضجيج العام !

وكان يوم " وفاء النيل " أو " جبر الخليج "-(٤)- من الأيام المشهورة

٤- وفاء النيل : كان من أهم الأعياد القومية. فعندما يحل موسم الفيضان. يقوم المشرف على دار المقياس بالروضة. برصد مقدار زيادة النيل عصر كل يوم ويقدم تقريرًا يوميًا للباشا وكبار الأمراء. يحدد فيه مقدار الزيادة بعدد الأصابع ومقارنته بما كان عليه في اليوم نفسه من العام السابق. فإذا بلغ منسوب النيل ست عشر ذراعًا. وضع ستة أصفر على الشباك الكبير بدار المقياس "علامة الوفاء" وإيذانًا ببدء أفراح أهل القاهرة بوفاء النيل. ويرفع قاضي المقياس – إشهاد – إلى الوالي وينطلق المنادون في الشوارع يزفون البشرى للناس. ويستدعى كبار المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بدار المقياس. وتزدان الشوارع ليلًا بالشموع والقناديل. وفي اليوم المحدد للاحتفال ينزل الباشا من القلعة في موكب إلى بولاق. فيستقل سفينته في أوج زينتها. فتقلع متقدمة مراكب الأمراء والصناجق. بينما تنطلق المدافع إلى أن يصلوا إلى دار المقياس. فيجتمع الباشا ونائبه وشيخ البلد وأمراء المماليك بشيخ المقياس وقاضي القضاة وكبار العلماء والأعيان. وعقب الفراغ من السماط الفاخر توزع الخلع. ثم يمضي الباشا بين قرع الطبول إلى قناة مسورة وهناك يتناول شاقورًا فيشرع ومعه كبار الشخصيات في هدم الجدار الفاصل فيتدفق النيل في القناة الكبيرة ومنها إلى باقي القنوات حتى ضواحي القاهرة. وتجدر الإشارة إلى أن أهل القاهرة كانوا يسمون هذا اليوم بـ" كسر الخليج" أو " كسر البحر". لكن لميلهم بذوقهم المرهف إلى التفاؤل دائمًا. فقد نفروا من كلمة " كسر" وسموه "جبر الخليج" أو "جبر البحر" !.. وقد جرت العادة أن يلقي الباشا بقبضات من العملات الذهبية أو الفضية خلال الاحتفال الرسمي. فيتسابق للفوز بها أمهر الغواصين. ويوم وفاء النيل. كان من المشاهد التي استأثرت بمخيلة بعض الرحالة العرب والأوروبيين. فسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم عن مباهج أهل القاهرة في ذلك المهرجان السنوي !

في حياة القاهريين، وحرص عدد من المؤرخين والرحالة على تسجيل وقائع هذا العيد. ودونت "سوزان" انطباعاتها عن مظاهر الاحتفال بهذا اليوم، ووصفت بهجة أهل القاهرة خلال خروجهم للاحتفال، بينما الزينات والأعلام والقناديل تتألق بها واجهات الدور والقصور وعلى جنبات برك الأزبكية والفيل والناصرية، وتتزاحم الدهبيات والقوارب المزدانة على صفحة النيل، وتدوي المدافع، وتصدح الأغاني والموسيقى من كل مكان في جو من البهجة والفرح العام.

وكعادة الرحالة الأجانب، حرصت "سوزان" على رصد الحياة في بعض أسواق القاهرة " تكاد لا تختلف عن مثيلاتها من أسواق مدن الشرق " وأشارت إلى انتعاش حركة التجارة في القاهرة نظرًا لعلاقاتها الوطيدة الاقتصادية بأوروبا وأفريقيا والهند والحجاز، كما تشهد تجارة المنسوجات والعطور والجلود والأسلحة رواجًا كبيرًا.

وتودع " سوزان فوالكان" القاهرة فتكتب: " كم أنا سعيدة، وقد قضيت ثلاث سنوات عشت فيها أعماق هذا الشعب الذي أحببته، وكنت أشعر دائمًا أنه شعب كريم القلب، شاركته أفراحه وأحزانه.. والآن وأنا راحلة: أحيي من قلبي الفلاحة المصرية بمشيتها الرائعة وإيماءاتها الرقيقة واعتدادها بنفسها.. وهذه المآذن المنتشرة الباسقة نحو السماء تجسد إيمانًا عميقًا ورائعًا يؤكد لي رقي الجانب الروحي لهذا الشعب ونظرته إلى الحياة " !

صوفيا.. و "الحريم العالي" !

أدت الشهرة التي حظيت بها مصر على نطاق عالمي إلى جذب أعداد أكبر من الزوار والرحالة، رجال ونساء من كل الطبقات – خاصة الإنجليز – وبما أنهم لم يأتوا لهدف معين، فقد انصرف فضولهم إلى كل شيء !

والرحالة المستشرقون – بصفة خاصة – أصبحت خبرتهم بمصر متجانسة إلى حد كبير، وابتعدوا عن التحيز والتعميم ومالوا إلى الوصف واعتنوا عناية فائقة بالتفاصيل، كما حاولوا وصف الحياة والحقيقة وصفًا دقيقًا !.. وبرزت بين هؤلاء: البريطانية " صوفيا لين بول "..

وهي شقيقة المستشرق البريطاني الأشهر " إدوارد لين بول "-(1)-

1- ان أهم مآثر "لين" العلمية أنه وضع معجمًا للغة العربية بالإنجليزية، أساسه ترجمة "القاموس المحيط"، مع شرحه "تاج العروس" ولإنجاز هذا المشروع العلمي كتب إلى صديقه المستشرق الفرنسي "فرسنل – Fresnel" أن يرشح له أحد علماء الأزهر، على علم بدقائق اللغة ويتميز بذوق في الأدب، فرشح له الشيخ "إبراهيم الدسوقي" والذي تعرف إليه "لين" خلال زيارته الثالثة إلى مصر في عام ١٨٤٢م، فضل "لين" أن يقيم في الأحياء الشعبية، وخلال تلك الفترة كان مقيمًا بحارة "قواديس" التي انتقل إليها من حارة "السقايين" التقى الشيخ والمستشرق مع تباينهما في النشأة والتربية والعقلية، لكنها اجتمعا على الغرض العلمي واللسان العربي، كان الشيخ الدسوقي يتوجه عصر كل يوم إلى بيت "لين"، فتحضر شقيقته "صوفيا" صينية

* وقد اصطحبته ومعها ولديها:

"ستانلى" و"ريجينالد" في رحلتها إلى مصر عام ١٨٤٢م، وعاشت بالقاهرة سبع سنوات. وأسفرت تجربتها التي خاضتها عن مجموعة من الرسائل نشرتها تحت عنوان " امرأة إنجليزية في مصر – رسائل من القاهرة"-(٢)- **"

يقول "ستانلى لين - بول" في مقدمة كتابه " القاهرة " عام ١٨٩٢م إن كتاب جدته " المرأه الإنجليزية في مصر" يكاد يكون منسيًا رغم أنه ينقل صورة صادقة عن القاهرة وأهلها منذ خمسين سنة.

تنتمي "صوفيا بول" إلى هؤلاء السيدات الإنجليزيات اللاتي يحترمن التقاليد. كتبت كتابها عن مشاهداتها في مصر بما في ذلك زيارات عديدة لحريم الوالي محمد علي باشا. ولم تكتب اسمها على غلاف الكتاب بل ذكرت فقط أنه بقلم أخت " إدوارد لين ". ثم إنها

عليها أربعة فناجين، اثنان للشاي واثنان للقهوة وعدة شطائر، ثم يدخنان "الشبك" ثم يبدءان العمل بمراجعة نسخ القاموس ومقابلتها، وما بين القراءة والشرح يدون "لين" ما فهمه وملاحظاته إلى الإنجليزية، كانا جادين في عملهما، وربما مكث "لين" في بيته مدة ثلاثة شهور من أجل سرعة إنجاز المعجم، وخلال سبع سنوات توثقت بينهما أواصر الصداقة، وكتب الشيخ الدسوقي: "كان الشيخ "لين" يعيش في أسرته وهي مكونة من زوجة رومية وأخته وابني أخته، وكانت زوجته وأخته تلبسان لباس المصريات، فلا تخرجان إلا مؤتزرتين مبرقعتين".. وكان إذا مرضت زوجة الدسوقي أو أحد أولاده، ذهبت "صوفيا" إلى بيت الدسوقي فتعالج وتمرض وتعطي من الدواء ما تعرف حتى يتم الشفاء، وكم أبدى الشيخ إعجابه بأسرة "لين": "فالبيت مدرسة عجيبة، فالشيخ "لين" عاكف على ترجمة القاموس ومعرفة آداب العرب، وأخته " صوفيا" تعلم ولديها الفرنسية والإيطالية، ويدرس لهما خالهما النبيل "لين" اللغة العربية ويشرح لهما ألفية ابن عقيل، وأصغرهما على علم بالهيروغليفية" !.. وأضاف الدسوقي: "وقضينا معًا حقبة من الدهر ناضرة، في عيشة زاهية زاصرة" !

٢- صوفيا لين بول : حريم محمد علي باشا، ترجمة : عزة كرارة، كتاب سطور، القاهرة، ١٩٩٩م.

أكدت في مقدمة كتابها أن أخاها هو الذي شجعها على الكتابة وكأنها تعتذر لخوضها هذا المجال !

وحدث الشيء نفسه بعد ذلك حينما صدر كتاب به صور فوتوغرافية لفرانسيس فريث للقاهرة وسيناء والقدس وأهرام مصر. مع تعليق وشرح لكل صورة وكتب على الواجهة إن هذا الشرح بقلمي "صوفيا بول" (١٨٠٤ ـ ١٨٩١) و"ريجينالد ستيورات بول" (ابنها). وفي الكتابين اعتمدت على اسم رجل وسمعته. في الأول أخيها وفي الثاني ابنها !

وبالعودة إلى سيرة "ستانلى لين بول" نجده كتب فيها أن السنوات السبع التي قضاها "لين" وأسرته في ثالث زيارة لمصر. كانت فترة سعيدة جدًّا ــ رغم العمل المتواصل في القاموس ؛ إذ نعم فيها بوجود زوجته، وأخته وولديها - اللذين أضفيا بهجة وشبابًا على حياته - حتى أنه سمح لنفسه ولأسرته برحلة إلى الأهرام، دامت ثلاثة أيام، وكانت النزهة الوحيدة التي قام بها خلال هذه الفترة. وحينما وصلت الأسرة إلى القاهرة، أقاموا في بادئ الأمر بمنزل القنصل العام البريطاني، إلى أن وجد لهم " عثمان أفندي " منزلًا مناسبًا لم ينعموا به كثيرًا بسبب " العفريت " الذي يسكنه. وقد أفاضت "صوفيا" في ذكر هذه القصة في رسالتين لها. ويذكر "لين بول" المجتمع الذي اندمجت أسرة "لين" فيه ويتكون من الإنجليز المقيمين في القاهرة، أمثال مستر "ليدر" المبشر الإنجليزي وزوجته. وكذلك الطبيب الإنجليزي الدكتور "أبوت" وعدد من المستشرقين والشيخ إبراهيم الدسوقي صديق "إدوارد لين".

تركزت رسائل "صوفيا" في وصف زياراتها لحريم العائلة المالكة. ومنحت القارئ الأوروبي معلومات وافرة عن الحياة الأسرية في مجتمع إسلامي تطرقت إليه بعض التأثيرات الأوروبية. كما أوردت بعض الملاحظات التاريخية عن القاهرة استخلصتها من مذكرات شقيقها وقام هو بمراجعتها بنفسه. أوجزت في وصف الأسكندرية ومعالمها[٣]. وأفاضت في وصف الطبيعة المصرية ومناظر النيل – خلال رحلتها من الأسكندرية إلى القاهرة. وفيها طافت على حمار بملابسها الشرقية ولم يظهر منها سوى عينيها – بالشوارع العتيقة والأسواق والقلعة ومارستان قلاوون والمساجد والحمامات العامة. وشاهدت مواكب الزفاف.

والجنازات. والمحمل. ومظاهر شهر رمضان.. وسجلت انطباعاتها عن بركة الأزبكية وبركة الفيل والخليج المصري ومقابر المماليك. وزارت سوق الموسكي ثم سوق الحمزاوي ووصفت جامع محمد بك

٣- كانت الأسكندرية مركزًا للقاء أعظم حضارتين: حضارة مصر القديمة وحضارة اليونان. وكانت منارة للعلوم والآداب والفن للعالم القديم. إنها المدينة ذات الهوية الخاصة صنعت أزمنة وصنعت حضارة وفيها انصهرت ثقافات. جعل منها البطالمة فردوسًا زاهرًا متألقًا ثم شهدت عصرها الذهبي الثاني في عهد الخديو إسماعيل. وظلت موضع اهتمام الرحالة المسلمون والأجانب. كما كانت محورًا لإبداعات أدباء عالميين أشهرهم: لورانس داريل. فورستر. نجيب محفوظ. وعن تاريخ الأسكندرية ومجتمعها وخططها ومعالمها. راجع : ا.م. فورستر : الأسكندرية تاريخ ودليل. ترجمة: حسن بيومي. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٠ –Breccia, E.: Guide de la ville
Empereur, J.Y.: Alexandria Past, Present, Future,- , ١٩١٠ ,.et du muse d'Alexandrie, Alex
– ٢٠٠٤ ,Haag, M.: Alexandria, city of memory, A.U.C press- , ٢٠٠٢ ,London, Grallimard
, ١٩٩٦ ,IFAO. Le Caire ,١١٢ vols, Biblio theque d'Etude ٤ ,١٩٣٠-١٨٣٠ Ilbert, R.: Alexandrie
Yan Nakakis, I.: Alexandrie- , ١٨٩٩ .Saurd, A.Alexandrie Ancienne et et Nouvelle, Alex-
١٩٨٤ ,Societe le vantine? Le mirior Egyptian, Marseille

أبي الدهب والجامع الأزهر-(٤)- ومشهد مولانا الإمام الحسين، وكتبت أن المساجد هي أهم المباني العامة وأروعها

بالقاهرة " إنها آية في الجمال كما أن الذوق الرفيع يتجلى في أناقة واختلاف عمارة مآذنها ".. وعبرت عن تأثرها الشديد عند سماعها الأذان، فكتبت : " لا يوجد صوت يضاهي روعة النداء لصلاة العشاء من المآذن العديدة.. وقد ذكرت لكِ إحساسنا حينما سمعناه لأول مرة في الأسكندرية.. ولكن هنا في القاهرة.. فإن وقعهُ أعمق بكثير. أحيانًا حينما تكون الريح مواتية يمكننا سماع ما يقرب من مائة صوت رخيم في وفاق تام وقور.. يقف المؤذن بين السماء والأرض ينادي البشر لعبادة رب الكون.. آه ! كم أتمنى كلما انطلقت هذه الأصوات مع نسيم الليل، أن يهمس كل مسيحي يسمعها بصلاة صامتة ترتفع إلى الملكوت الأعلى طالبة لهم الرحمة.

٤- الجامع الأزهر: شيده القائد جوهر وافتتح بصلاة الجمعة في السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وعرف بجامع القاهرة، وطوال تاريخه اشتهر في العالم الإسلامي وفي أدبيات الغرب بـ"جامعة الأزهر" واشتهر كذلك كمعقل للحركات الثورية والمقاومة ضد المحتلين، وحرص جميع الرحالة المسلمين والغربيين على زيارته وتسجيل انطباعاتهم عنه، وهناك مدونة عظيمة عن الأزهر: جامع وجامعة، وتطور عمارته والتجديدات والإضافات التي ألحقت به منذ عصر سلاطين المماليك حتى عصر الأسرة العلوية، راجع: خطط المقريزي، الخطط التوفيقية، السيوطي "حسن المحاضرة" د. حسن عبد الوهاب : "تاريخ المساجد الأثرية" فريد شافعي: "العمارة العربية في مصر الإسلامية" أحمد فكري: "مساجد القاهرة ومدارسها" سعاد ماهر: "مساجد مصر" محمد عبد الله عنان : "تاريخ الجامع الأزهر" راجع أيضًا : - Creswell. K.A.C: The muslim Architecture of Egypt, Oxford, ١٩٥٨ ,Haute Coeur, L.: Les mosquees du Caire, Paris- , ١٩٣٢ ,Wiet,G.: Les – Mosquees du Caire, Hachette, ١٩٦٦

الحريم العالي

لقد ظلت فكرة الحريم تعابث خيال الأوروبي كلما تذكر الشرق. كما داعبت خيال عدد من الفنانين

المستشرقين. فأبدعوا – من الخيال – لوحات لحظيات وجواري ومشاهد من "الحريم" وأقول أنها من الخيال.. خاصة إذا علمنا مدى حرمة "الحرملك". والتقاليد الشرقية الصارمة. ولا يمكن لأي إنسان أن يفكر بمجرد الاقتراب من هذه المنطقة المحرمة.. حتى في أوقات زيارة بعض الضيفات والأقارب من النساء لجناح الحريم. لا يمكن لرب الدار أن يلج "الحرملك" إذا شاهد نعال حريم على باب "الحرملك" !

كانت "صوفيا بول" أكثر تقديرًا لنساء مصر. وأكثر فهمًا للعادات والتقاليد. فلم تسيطر عليها "عقدة الاستشراق" والأفكار المسبقة عن الشرق عامة. فقد أخفق الرحالة الغربيون في فهم "الحريم" وحياة النساء في الشرق.. وماذا عن الحياة خارج مدن الشرق الكبرى؟! خاصة في المناطق الريفية ونهوض النساء بقسط كبير من أعباء الزراعة والحصاد. والبيع والتجارة في الأسواق بغرض الإسهام في نفقات العائلة.

وعند حديثها عن المرأة المصرية فقد احتفت بها احتفاء يدل على حيدة موضوعية. كما عطفت على ذكر التقاليد المتبعة عند استقبال السيدات الضيوف في "حرملك" البيوتات الكبيرة بما نستشعر معه تقديرها العميق لحسن الضيافة المصرية. فكتبت:

" عندما وصلنا إلى منزل حبيب أفندي وتخطينا المدخل الخارجي. وجدت أن "الحرملك". مثل غيره من بيوت عظماء هذا البلد. لا يقتصر

على الطابق الأول والذي يليه، ولكنه منزل خاص كامل، منفصل عن منزل الرجال. مررنا ببهو واسع مرصوف بالرخام، وعند باب أول حجرة، قابلتنا ابنه حبيب أفندي الكبرى التي حيتني حسب الطريقة الشرقية التقليدية بأن لمست بيدها اليمنى شفتيها ثم جبينها، كما أصرت أن تخلع عني بنفسها ردائي الخارجي بالرغم من وجود الجواري من حولنا، وهذه علامة تواضع كبير. من المعتاد في بيوت الطبقة المتوسطة، أن تشرف السيدات زائراتهن بأن يخلعن عنهن " التزييرة "ولكن في حريم الطبقة العليا تقوم الجواري بهذه المهمة، ولا تفعل ذلك إحدى أفراد العائلة إلا إذا كانت الضيفة ذات مكانة خاصة جدًّا.

وعند زيارتي لمن يعتبرن من نبيلات البلد، أرتدي تحت التزييرة الملابس الإنجليزية فهذا يجنبني ضرورة الامتثال لعادات قد تشعرني بالإذلال، إذ لو ارتديت الزي التركي لزم علي أن أؤدي التحية التقليدية المتبعة التي تبدي خضوعًا لا أكنه ولا أود أن أشعر به، في حين أنني كامرأة إنجليزية، تعاملني أرقى السيدات ليس فقط كمثيلات لهن بل يعتبرنني غالبًا أرفع منهن منزلة. لم أقدم أبدًا سوى التحية المألوفة إلا في حالات مثولي بين يدي سيدات مسنات أرغب في تمييزهن، فأنحني باحترام وأخفض يدي اليمنى قبل أن ألمس بها شفتي وجبيني أولًا عند تقديمي لهن ثم حينما أنصرف، كذلك عندما أتقبل أي نوع من الحلوى أو القهوة والشراب أو أي مرطبات أخرى، وعند إرجاع الكوب أو الطبق الذي كان يحتوي عليها، أؤدي التحية التقليدية المتبعة لاهم سيدة في الحريم وهي التي تتميز بمكانها الخاص على الديوان.

وعندما أكون في بيتي أو في زيارة لسيدات الطبقة المتوسطة،

أرتدي الزي التركي فهو مريح للغاية ويناسب تمامًا جوَّ هذا البلد. ولكني لا أخرج أبدًا سوى بثوب الركوب الشرقي الذي سبق أن وصفته لك.

بعد أن خلعت عني السيدة التي ذكرتها. ثوبي الخارجي. تقبلته منه جارية في معيتها وضمته في منديل كبير من الكشمير الرائع. وردي اللون ومطرز بغزارة بخيوط من ذهب وفي الغالب تكون المناديل من هذا النوع أنيقة جدا في حريم الأثرياء. ولكن هذا المنديل بالذات كان أجمل ما رأيت قاطبة من حيث دقة التطريز والذوق الرفيع. نقل ثوب الركوب لتوه إلى غرفة أخرى وهذه عادة متبعة. الغرض منها إبطاء فترة توديع الزائرة عندما تهم بالانصراف حتى يقدم لها بعض المرطبات الأخرى. اصطحبتني صديقتي الجديدة إلى الديوان وأجلستني إلى جانب مكان الشرف الخاص بوالدتها. ابنة عم المغفور له السلطان محمود. التي ما لبثت أن دخلت الحجرة وحيتني بحرارة وأشارت إلي أن أجلس في أرفع مكان إلى يمينها وهو المكان نفسه الذي قادتني إليه ابنتها وفي حين جلست جدة عباس باشا على يسارها. بعد قليل دخلت ابنتها الثانية التي حيتني بكل لطف ورحبت بي بطريقة رقيقة جدا. كانت ملابسها أبهى من ملابس أختها ولهذا سوف أصفها لك.

كان الطربوش فوق رأسها يلتف حوله منديل غامق اللون ثبت في الجانب الأيمن منه فرع بديع الصنع من الماس يمتد جزء منه فوق جبينها. ويتألف الفرع من أحجار كبيرة من ماس البرلنتي صفت على هيئة ثلاثة مزاهر متجاورة يمتد من وسط كل منها فرع يمتد طوله عن خمس بوصات ينثني على شكل بيضاوي. كما كانت ترتدي صدرية

طولية وسروالا من قماش هندي غامق اللون منقوش بالأزهار، وحول وسطها شال عريض كشميرى قيم، ويزين جيدها أفرع كثيرة من اللآلئ الضخمة يضمها على معينة خرز من الذهب. شيء واحد كان يشوه منظرها بطريقة غريبة فقد زججت حاجبيها بالكحل، وامتد الطلاء الأسود ليضمهما بخط عريض قبيح للغاية، كثير من النساء من مختلف الطبقات يشوهن وجوههن بهذه الطريقة إلا أن بعضهن يستخدمن الكحل بمهارة ودقة فائقة للحواجب والأعين، ولكن حاجبي السيدة التي أتحدث عنها كانا يبدوان غريبين جدا فأفقدا وجهها كل تعبير ومنظر طبيعي.

وقف عدد من الجواري البيض أمامنا على شكل نصف دائرة، يتقبلن من أخريات في حجرة خارجية صينيات من فضة عليها أطباق زجاجية بها حلوى، كان كل طبق به ثلاث ملاعق وفي كل ملعقة قطعتان من الحلوى، تبع هذا في الحال تقديم القهوة فوق صوان من الفضة أيضا كانت كالمعتاد في أقداح صغيرة من الصيني وضعت في حوامل على شكل كؤوس البيض ولكن هذه لم تكن كمثيلاتها في البيوت العادية البسيطة أو المصنوعة من خيوط الفضة المتشابكة، ولكنها كانت مرصعة بالماس كانت بالطبع أنيقة وقيمة جدًّا أكثر من كونها جميلة. لا تقدم القهوة أبدا من الصينية رأسا بل تمسك التابعة الحامل بين الإبهام والسبابة وتقدمها هكذا برقة فائقة. بعد تقديم هذه المرطبات بفترة وجيزة، ظهرت جاريتان تحملان صَوانٍ فضية عليها شربات في أكواب غاية في الأناقة من زجاج الكريستال لها أطباق وأغطية والصينية كلها مغطاة بمفرش وردي اللون غني في

تطريزه تزيحه الجارية عندما تقترب منا لنتقبل القدح. وجريا على العادة، لا نحتسي إلا ثلثيه، ثم تتقدم جارية أخرى في يدها منديل أبيض كبير مطرز لتجفيف الفم والمفروض أن يمس الشفاه فقط ومن تفعل أكثر من ذلك تعتبر " غشيمة ".

ويجدر بي أن أذكر ما كان يسود هذا الجو العائلي من روح طيبة ومرح شغل بها فكري طوال زيارتي الصباحية هذه، إن كل ما لاحظته من عادات المرأة الشرقية سواء في منزل حبيب أفندي أو غيره، يجعلني أفكر في التناقض البين الموجود في عادات وتقاليد الحياة الشرقية مع البناء العام للمجتمع الأوروبي، لعلك قرأت كتاب " روح الشرق" الذي كتبه " مستر اركهارت Mr. Urquhart " وأعجبتك نظرته لحياة الحريم وأن " البيت " الذي يعرضه بصورة براقة، له ميزات كثيرة. حقيقة، هناك الكثير مما يشغل البال حينما نلاحظ خصائص هؤلاء القوم التي لا مثيل لها في الغرب.

ومن الغريب أن حياة المرأة المسيحية الأوروبية لم تكن تختلف كثيرًا عن حياة المرأة في الشرق، فالمرأة في أوروبا ظلت مكبلة بأشد القيود حتى نهاية القرن التاسع عشر.. والنظرة المتدينة إلى المرأة الأوروبية وصلت إلى حد أن "شارلوت برونتى" أرسلت عام ١٨٣٧ بواكير قصائدها إلى الشاعر "روبرت سوثى" الذي أقر أن لديها الموهبة ولكنه حاول أن يثنيها عن مواصلة الكتابة: "لا يجب أن يكون الأدب هو شغل المرأة الشاغل، فأحلام اليقظة التي تغرقين فيها قد تؤدي إلى حالة من الاعتلال تصيب العقل.." !

وأبدت إعجابها بالسلوك الراقي في "الحرملك" فكتبت:

" لم أجد صعوبة في اعتناق أساليب السلوك الشرقية ويبدو لي من الاحترام الذي أقابل به والطريقة التي أعامل بها والإصرار أن أكرر الزيارة، إنني نجحت في فهم الناس وإرضائهم، ولدي اعتقاد راسخ نشأت عليه هو أنه يمكن تجنب الاختلافات البسيطة على التوافه التي كثيرًا ما تعكر صفو المجتمع، وتفصل بين الأصدقاء، إذا حاول المرء أن يلاحظ ويدرس ويراعي عادات وتقاليد الآخرين. في هذا المكان، أدركت فائدة هذا السلوك الذي جعلني دائما محط اهتمام واحترام الجميع ".

وتمضي " صوفيا " في تدوين مطبوعاتها فكتبت:

" لا يستطيع أجنبي أن يحدد بالضبط مقدار الحرية التي تتمتع بها النساء، دون أن يختلط بالمجتمع الشرقي. هناك شيء واحد لا شك فيه وهو أنه إذا كان الرجل طاغية، تصبح زوجته جارية له، ولكن هذه حالات نادرة جدا. لا أحاول الدفاع عن نظام الزواج المعصوب العينين هذا، كما لا أتوقع تلك الزيجات التي نجدها غالبا في إنجلترا ولكني مرتاحة لما أراه من أن السيدات الشرقيات راضيات، وأجدهن دون استثناء واحد في نطاق معرفي، مرحات، منشرحات الصدر مما يؤكد لي أنهن يعاملن معاملة حسنة، ونساء الطبقة الوسطى لهن مطلق الحرية في تبادل الزيارات وارتياد الحمام، ولكن الآباء والأزواج يعترضن على خروجهن للتسوق ولهذا تتردد الدلالات بكثرة على الحريم والحصار أشد بالنسبة لسيدات الطبقة العليا ولكن في ذلك نوعا من التمييز، والنساء يتباهين به وكثيرا ما يدلل الرجل زوجته بأن يدعوها " الجوهرة المصونة الدرة المكنونة " تعبيرًا عن مفاتنها الخفية ".

فى قصر الدوبارة

وأشادت "صوفيا" بالاستقبال المشرف والاستضافة الراقية التي تمتعت بها في حريم الباشا بقصر الدوبارة على الشاطئ الشرقي للنيل، وأفاضت في وصف صالون الاستقبال وبروتوكول الضيافة، وأشارت إلى أن أغلب السيدات كُن صبايا شقراوات وجميلات، وحظيت صوفيا بلقاء أرملة طوسون باشا، ونازلي هانم ابنة محمد علي باشا، ووالدة محمد علي بك الصغير، ووالدة عباس حلمي باشا، وأضافت:

" ولا شك في أنه يكون خرقًا لقانون اللياقة ومخالفًا لما يتبع من عرف فيما يخص الحريم، أن أقوم بوصف تفصيلي لزوجات الباشا وأي سيدة أذكرها بالاسم أو بصلاتها الأسرية. ولكن يمكنني أن أعبر بصفة عامة عن أعجابي الشديد بالسيدتين اللتين قابلتهما وأظن أنهما الزوجتان الوحيدتان للوالي، كلتاهما في سن الشباب، واحدة وسيمة، مهيبة الطلعة، في حين أن الأخرى آية في الجمال وتفيض رقة وعذوبة ".

فى عُرس زينب هانم

دُعيت صوفيا – بعد أن توثقت علاقتها بحريم البيت المالك – إلى حضور الاحتفالات بزفاف زينب هانم صُغرى بنات الباشا محمد علي، وعريسها "كامل باشا" الياور الخاص لمحمد علي باشا، وفي اليوم الأول اتخذت طريقها بصُحبة مسز ليدر إلى قصر القلعة حيث تقام الاحتفالات، وفي الطريق من الأزبكية إلى القلعة مرت بفرق متميزة من موسيقى الجيش، وكتبت في رسالة إلى صديقتها :

ولجنا ساتر الحريم، ذلك الحاجز الذي لا يتخطاه أي رجل سوى سيد القلعة أو من يحتاج إليهم من عاملين. ووجدنا الجيش المألوف من الأغوات والجواري السود في انتظار وصول المدعوات من السيدات الأوروبيات. وحين مررنا من خلال الصالون السفلي، رأينا جواري بيضا من مختلف الحريم في أبهى ثياب ورافقتنا معية منهن ونحن نصعد السلم، وحينما وصلنا إلى الصالون الكبير العلوي أرشدننا إلى الطريق الذي نسلكه فاخترقنا جمهورا كثيفا حتى وصلنا إلى مكان الشرف.

هنا وجدنا العروس جالسة فوق مجموعة مرتفعة من الوسائد من الساتان الوردي الفاتح المطرزة بفخامة الذهب. وبجوارها، جلس أخوها الصغير، محمد علي بك، وعن يسارها وقفت سمو الأميرة نظلة هانم، أكبر بنات الباشا تنشر وابلا من العملات الذهبية والفضية بين الجموع، وكان هذا هو سبب وجود أكثر من ثلاثمائة امرأة، معظمهن يحاولن الحصول على هذه الهبة، والعملات التي نثرت في الحريم كانت من فئة خمسة وثلاثة قروش وكذلك بارات فضية مخلوط معها شعير وملح، لا أعرف سبب نثر الشعير ولكن الغرض من الملح هو درء عين الحسود.

جلست عن يمين العروس، والدة سعيد باشا التي أقعدتني نظلة هانم بجوارها، وبجانبي من الجهة الأخرى، مسز ليدر. وحينما توقف وابل الذهب والفضة، غادرت العروس الصالون مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهرات.

وأفاضت صوفيا في وصف ثياب العروس والجوهرات واللآلئ و"الجوقة الموسيقية"، ودعتها والدة محمد علي بك إلى الصالون المخصص

لاستراحة الضيوف من الأوروبيات، ثم دعتها إلى مشاهدة الغرفة المخصصة لهدايا العروس، وكتبت بالتفصيل عن المعروضات النفيسة من المجوهرات والملابس والأطقم الذهبية والفضية، بالإضافة إلى الماس والمجوهرات التي أهداها الباشا الكبير إلى ابنته العروس، ورافقتها في هذه الجولة قرينة سعيد باشا وأبدت إعجابًا شديدًا بها، ووصفتها بأنها – ملكة جمال -، وكتبت:

" إن هذه الفتاة الجذابة جديرة بألا نمر عليها مر الكرام في صمت، فوجهها آية في الإبداع وقوامها الفاره الأهيف غاية في الرشاقة وفي سلوكها أناقة أخّاذة، ولكن من أميز صفاتها، طبيعة سمحة، تشع فتضيء محياها المعبر الساحر، لقد تم زواجها في العام الماضي من سعيد باشا، أحد أبناء محمد علي، وما أتمناه أن يصون مثل هذه الجوهرة ".

وتابعت صوفيا وصف الاحتفالات المبهرة بالعُرس في الليالي التالية، وقد قدرت عدد النساء اللاتي أتين إلى القصر خلال أسبوع الاحتفالات بنحو سبعة آلاف في اليوم الواحد، وطوال هذه الأيام والليالي الأسطورية كانت مدافع القلعة تُدوي، وصواني الطعام توزع على الفقراء، وكانت صوفيا حريصة على تأكيد التسامح الديني للباشا الكبير، فكتبت:

"من أفضل سمات محمد علي في نظري تسامحه الديني في الحالات التي يكون فيها الشرع متعسفًا وقاسيًا إلى أبعد حد، وباستطاعتي ذكر أكثر من حالة حدثت منذ فترة طويلة، حال فيها دون تطبيق حكم الشرع في أشخاص كانوا مسلمين منذ مولدهم

ثم اعتنقوا المسيحية. وفي حالات أخرى تخص المسائل الدينية. تميز فيها باعتداله أو إذا أردت أن تسميها. سياسته المستنيرة العاقلة المتسامحة. وفي حين كانت حكومة السلطان تضع كافة العراقيل الوقحة لمنع إقامة كنيسة لنا في القدس، وضعت أساسات كنيسة إنجليزية عظيمة في الأسكندرية بإذن فوري من محمد علي بالرغم من الاعتراض الصارم على ذلك من قبل القانون التركي. ويقال: إن هذه الكنيسة سوف تكون صرحًا مميزًا جدًّا ذا نمط يغلب عليه الطراز البيزنطي مع تشابه الشكل العام بالأبنية اليونانية والإيطالية القديمة ".

وشعرت صوفيا بأنها قادرة على إبداء بعض الأفكار العامة عن الأوضاع الاجتماعية للمرأة الشرقية. وتقاليد الزواج و"عادة التمسك بالحجاب ليس بالنسبة للمسلمات فقط. بل أيضًا بين المسيحيات الشرقيات" !.. وأشارت إلى أن بعض الإنجليز ينظرون باستحسان إلى تعاليم الشريعة الإسلامية والعادات الخاصة بالزواج والفصل بين الجنسين السائدة هنا وفي البلاد الإسلامية الأخرى.

وحرصت صوفيا على زيارة أبي الهول العظيم والأهرامات "هذه المغامرة التي لن تنساها حتى في أحلامها" !

ثم عرجت على وصف الحمام العمومي واعترفت بأنها "وجدت سعادة كبيرة في عملية الاستحمام ذاتها على الطريقة الشرقية" !

هارييت مارتينو
وذكريات النهر المقدس !

تباينت رؤية الرحالة الغربيين للباشا "محمد علي" وإن اتفقوا على أنه أحد "أبرز الشخصيات في القرن التاسع عشر".. أثار إعجابهم بحرصه على إدخال مظاهر الحياة الأوروبية إلى مصر وهو "رائد عصره على الرغم من أنه كان أميًّا" !

وكانت لجهود محمد علي باشا وحفيده "الخديو إسماعيل" بصفة خاصة: إسهامها الأكبر في تزايد أعداد الرحالة والسائحين الأوروبيين، بدءًا من بسط الأمن في ربوع البلاد، وتمتع الغربيين بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، وتنامي المشروعات العمرانية وتحديث شبكة المواصلات والاتصال (البريد والبرق) وانتعاش حركة التجارة مع افتتاح قناة السويس..

وخلال القرن التاسع عشر - القرن للرحلات - ازدهرت الطبقة الأرستقراطية في بريطانيا، فحثت أبناءها المثقفون على السفر والتجوال في "رحلة كبرى" يكتسبون بها التجارب والخبرات تمهيدًا لتحمل المسؤولية، وفي ذلك العصر - الفيكتوري - برز عدد من الأقلام النسائية التي سجلت مذكرات ورسائل شخصية أو دبجت مقالات مفصلة في دوريات الصحف.

كان من بينهن الكاتبة والروائية البريطانية "هارييت مارتينو"..
عملت بالصحافة ونشرت العديد من الروايات. وهي في كتاباتها "تنكر التثليث وتقول بالتوحيد". وقدمت ترجمة موجزة لكتاب "أوجست كونت"[1]-"الفلسفة الوضعية" عام ١٨٥٣م فكان لها فضل نشر هذه الفلسفة بإنجلترا.

قامت الروائية والرحالة "هارييت مارتينو" بزيارتها إلى مصر عام ١٨٤٦ وفي عام ١٨٤٨ صدر كتابها "الحياة الشرقية" الذي تضمن وقائع رحلتها وذكرياتها في مصر وفلسطين.

وإلى جانب اهتمامها بوصف الحقائق الموضوعية. اتسم أسلوبها بالسلاسة والتألق لم يتوافر في أساليب كثير من الرحالة. كما لا نلمس أثرًا للتعصب في كتاباتها. وتسري انطباعاتها صافية – بعين دقيقة الملاحظة – فتغوص إلى الأعماق ويلونها خيال خصب مولع بالتأمل. ووصفها للمشاهد يثير ذكريات بعيدة وهدوء إيقاعها يتماوج مع انسياب نثرها الشفاف.

ونلمح أولى انطباعاتها عن مصر في تلك الدهشة العميقة عندما كتبت : "كم أتضاءل حين أبدأ حديثي عن مصر. فيتعذر عليَّ نقل صورة دقيقة لها. فمصر تستقبلك بشمس ساطعة وضوء باهر يخالطان شعورك الذي أتيت به. فإذا بها جميعًا تشكل انطباعك الأول الذي قل أن يتشابه فيه اثنان. وكل ما أستطيع أن أفعله أن أنقل ما وقع عليه بصري بكلماتي القاصرة" !

١- أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) فيلسوف فرنسي شهير أسس المذهب الوضعي: "لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة والخبرة" ويعد من مؤسسي علم الاجتماع.

ولم تكن كلماتها قاصرة.. فقد عبرت عن مشاعرها وانطباعاتها أمام تلك الصور والمشاهد بكل الصراحة والتلقائية والوضوح، وإحساس راق بكل ما هو مثير ومدهش، فكتبت عن القاهرة بأنها "من أعجب مدن العالم وأكثرها إثارة للدهشة".. وكانت بحيرة الأزبكية موضع إعجابها وقد أحاط بها عدد من

القصور والدور الفخمة-(١)- وطرقات واسعة تمتد تحت ظلال أشجار السنط الجميلة، بينما تتناثر بعض المقاهي بأشكالها البسيطة وروادها من الأتراك والأرمن واليهود.. وكتبت أيضًا : "ولمشاهدة القاهرة الحقيقية، علينا أن نمتطي حمارًا وننغمس في شوارع المدينة" ووصفت صخب الزحام وانتشار باعة البطيخ والبرتقال والموز وقصب السكر وباعة الحلوى والمذبات وصفًّا طويلًا من الجمال تحمل قرب الماء، نساء ملفوفات في عباءات طويلة وتركيات على حميرهن المسرجة

١- تنسب "الأزبكية" إلى الأمير سيف الدين أزبك بن ططر الأشرفي الظاهري وكان يقطن بالقرب من هذه المنطقة، فأراد أن ينشئ مناخًا لجماله وخيوله، فمهد ما كان بها من كيمان وحفر البركة المنسوبة إليه وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري وأنشأ بها جامعًا وعددًا من القصور والأسواق والحمامات والحوانيت حتى صارت "مدينة على انفرادها" كما قال ابن إياس، وقد هدم جامع أزبك أبان تنظيم ميدان القلعة وفُتح شارع محمد علي ورُدمت البركة في عام ١٨٦٤م، وأنشئت حديقة الأزبكية وبحيرتها الصناعية والجبلاية وزرعت بها الأشجار النادرة وأشرف على تصميمها وتطبيقها المهندس "باريل بك" الذي نظم حدائق الأورمان وسراي الجيزة، وأقيم بها مسرح كوميدي، وكانت مساحتها ٢١ فدانًا يحيط بها سور من الحديد المشغول تتخلله أبواب، وفيما بعد أقيم بجوار المسرح سينما صيفية وساحة للباتيناج شتاء.. ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ حي الأزبكية وتطوره العمراني راجع : ابن إياس "بدائع الزهور" جـ ٣، ابن تغري بردي "النجوم الزاهرة" جـ ١٥، الجبرتي "عجائب الآثار" جـ ١، جـ ٢، عرفة عبده علي "القاهرة في عصر إسماعيل".. راجع أيضًا الدراسة الوثائقية الهامة : "Behrens-Abousief, D.: Azbakiyya and its environs, IFAO, Le Caire, 1985

بأناقة وخدمهن يفسحن لهن الطريق وفرسان مصريون في حللهم الرائعة على جيادهم المطهمة.. أجناس متنوعة وأزياء غريبة وحركة عجيبة لا مثيل لها في مدننا الغربية" !

وأبدت إعجابها بسوق الغورية، حيث تتكدس المنسوجات الحريرية الفاخرة المستوردة من دمشق والهند وبلاد فارس، أيضًا سوق العطور وماء الورد، وأشارت بأن الأسبلة العامة [٣]* تكاد تزدان بها كل مفارق الطرق بالمدينة "وهي غاية في الجمال والرقة وتبرز أناقة عمارتها في ثراء وفخامة تفاصيلها وهي تتناغم مع روعة مساجد القاهرة وشموخها وإزدهار زخارفها في مشهد عام يثير الخيال ويداعب العيون" !

٣- أشار العالم الفرنسي "جومار" عام ١٨٠٠ إلى أن الأسبلة هي منشآت خيرية لمد السكان بالماء الذي يحمل إليها من النيل على ظهور الجمال، وهي مزدانة بأعمدة رخامية وشبابيك من البرونز مشغولة بمهارة وعادة ما يشغل الدور العلوي - كُتاب - مجاني يقتصر على تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب ويصرف عليه من ريع مؤسسة السبيل نفسه. وقال: إن بالقاهرة ستّين سبيلًا رئيسيًا. ومن أشهر الأسبلة الباقية حاليًا : سبيل الأزهر، وسبيل الغوري، وسبيل قايتباي، وسبيل عبد الرحمن كتخدا (بين القصرين) وسبيل السكرية. وسبيل نفيسة البيضا. وسبيل رقية دودو. وسبيل السلطان محمود. وسبيل السلطان مصطفى وسبيل أودة باشي وسبيل أولاد عنان وسبيل أم عباس باشا.. ولمزيد من التفاصيل راجع "الخطط التوفيقية" أيضًا الدراسة الوثائقية الهامة : Raymond, A.: Les Fontaines Publiques (Sabil) de Caire a l'epoque Ottomane, ١٥١٧-١٧٩٨, An. IsL. XV, IFAO, Le Caire, ١٩٧٩.. وتجدر الإشارة إلى أن العالم الفرنسي "أندريه ريمون" وقد التقيته عدة مرات في المعهد الفرنسي بالقاهرة، عاش في القاهرة سنوات طويلة وعاد إليها مرات عديدة. تتلمذ على يد "جاستون فييت" الذي ظل مديرًا لمتحف الفن الإسلامي عشرين عامًا وترجم خطط المقريزي إلى الفرنسية وكتابه عن مساجد القاهرة من أهم المراجع في موضوعه. وكتب ريمون عدة مؤلفات عن مصر وتاريخ القاهرة وآثارها، وأنصف في موضوعية تامة المماليك والعثمانيين. واعتمد على وثائق المحكمة الشرعية ودار المحفوظات بالقلعة. وكتابه "سنوات الحملة" قارن فيه ما كتبه "الجبرتي" في تاريخه مع كل ما نشر بالفرنسية عن حملة بونابرت - ٣٦٣ مرجعًا فرنسيًا - وتناول بروح علمية محايدة ثورتي القاهرة ومقاومة الاحتلال بقيادة شيوخ الأزهر. مما أعطى انطباعًا أن شيخنا الجبرتي قد بُعث من جديد وكتب بالفرنسية !

ويمكننا القول من خلال متابعة مدونات الرحالة الأوروبيين: أن سحر مصر قد تملك العقل الإنجليزي! .. فتأثير الأهرامات والمعابد والتماثيل وروعة النقوش على جدران المقابر والأعمدة الجبارة دفع "هاربيت" إلى التأمل الأخلاقي فكتبت: "إنها مدرسة يجب على المغرور أن يتعلم فيها التواضع، وعلى الملحد أن يتذكر ربه، وفيها سيجد المرء هداية أكبر بكثير عما سيجده في شطحات رجال الدين أو مواعظهم "!

وكانت "هاربيت" تزدري كل من جاء مصر من أجل النزهة فقط، وقد رأت أن تجربة هذه الزيارة تستحق الدراسة العميقة، بما فيها من مشاهدة العجائب، وحرصت على التأكيد بأنها حضارة روحية متقدمة كانت معروفة على ضفاف النيل من ثلاثة آلاف سنة على الأقل قبل ظهور المسيحية، وخلال رحلتها إلى مصر وبلاد الشام كانت مشغولة بدراسة الخلفية التاريخية والدينية للكتاب المقدس، ودرست الديانات المصرية القديمة، واليهودية والمسيحية والإسلام، وانحازت لنظرية التطور الدينى وأن كل عقيدة تضيف رؤية جديدة لما قبلها، لكن اهتمامها الأساسي كان بمصر القديمة، وبعض منه بمصر الحديثة، وكانت تشكو من ندرة المعلومات والإحصاءات التي يمكن اعتمادها.. ولم يرق لها نظام الحرم الذي رأت فيه نوع العبودية وأن تعدد الزوجات مُهين لكرامة المرأة !

وفي "طيبة" وبين أطلال "الكرنك" وأعمدة معبد الأقصر، لم تنظر إليها كمجرد شواهد على عجائب العمارة في مصر القديمة، بل كرموز لحضارة كاملة ولمجد طواه الزمان.. "عندما جلست أستريح

للحظات بين هذه الأطلال، بدا لي الأمر كما لو كان حلمًا واضح الملامح، ووجدت صعوبة في الاقتناع بأنني رأيت هذه الشواهد الجليلة التي انطبعت في ذاكرتي، وكان خيالي يرتع في صور تلك الأشكال الرائعة التي رأيتها"!

كانت تعبر عن انطباعاتها دون إسراف، مكتفية بالمنظر ذاته تعده متعة مثلى للعين الأوروبية، وكانت تعتقد أن التأثير الذي يحدثه توجس هذا الشعب من الصحراء في عقول أبنائه وطباعه لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره : "كان من الطبيعي أن يقدس المصريون الأقدمون نهر النيل، فقد كان آلهًا للشعب، وله في عيون الكهنة مظهر الآلهة، فالنيل منبع ما بين أيديهم من خيرات، وما في قلوبهم من آمال، وهو موضع القوة الدائبة التي لا تكف عن الحركة الدافقة أمام أبصارهم تقهر معظم ما يصادفهم من صعوبات، وإذا كان النيل عندهم هو قوى الخير فالصحراء هي قوى الشر، لذا نشأت عقيدتهم التي ترمز إلى دفن "أوزوريس" في النهر المقدس حيث يبعث مرة كل عام لكي يهب مصر بركاته" !

أرستقراطية فرنسية في صحراء سيناء

شهد القرن التاسع عشر موجات متزايدة من حجاج "الأرض المقدسة".. قضاء عيد الفصح خاصة في القدس و زيارة الأماكن التي باركها المسيح والسيدة مريم العذراء والبحث عن مشاهد توراتية.. وشكلت هذه الرحلة في الأدب الفرنسي جزءًا مما عُرف بـ"الحج إلى الصحراء" فقد كان الأدباء الفرنسيون يعدون الرحيل في الصحراء : فضاءً أدبيًا وجماليًا. وقد أنتجوا فصولًا رائعة في وصف الصحراء العربية وفي وصف البدوي والبادية.. ومن الملاحظ أن الرحلة إلى الأرض المقدسة كانت تبدأ غالبًا بزيارة مصر.

والكونتيس "فاليرى بواسيه" ١٨١٣ – ١٨٩٤، كانت تنتمي إلى عائلة أرستقراطية فرنسية، اقترنت بالكونت "أجينور دى جاسباران" السياسي الشهير والذي كان يمثل النبل البروتستانتى في جنوب فرنسا.. وسيدات الطبقة الأرستقراطية الفرنسية – في ذلك العصر – كن يتبارين في الأناقة والعطور والثقافة الرفيعة !

نشرت "دى جاسباران" عام ١٨٤٣ كتابها الأول الذي كان يدور حول الزواج من وجهة النظر المسيحية ومثل تأملات أولية حول الزواج

المثالي.. في الخامس من أكتوبر عام ١٨٤٧ وصلت إلى اليونان، وفي بداية ديسمبر وصلت إلى مصر ثم سلكت الطريق التقليدي من القاهرة صعودًا في النيل حتى "دندور" في يناير عام ١٨٤٨. وفي منتصف مارس اجتازت سيناء حتى القدس، وبقيت حتى قضت الأسبوع المقدس، ثم زارت بيروت.

نُشرت رحلة الكونتيس "دى جاسباران" في نهاية عام ١٨٤٨، وأُعيدت طباعتها عام ١٨٥٠، وبعد خمسة عشر عامًا أوحت لها الرحلة إلى "القسطنطينية" كتابًا جديدًا احتشد بالجاذبية التلقائية وطرحت للمرة الأولى : مشكلة حياة المرأة في الشرق، لقد كانت كتاباتها تجسيدًا للطابع الأخلاقى الاجتماعي والديني، وتجسيدًا للفكر البروتستانتي الليبرالي في ظل الإمبراطورية الثانية.

كانت الكونتيس تفرض على طاقم الدهبية المرافق لها في رحلتها في نهر النيل التقيد بالراحة الأسبوعية، وتميز أسلوب تعاملها مع الجميع بالرقة والتواضع..

وصف النقاد كتاباتها بشكل عام بالحيوية والحساسية والورع المخلص الخالي من التزمت، وبالكثير من الانجذاب نحو جميع أشكال الحياة، وكتب "برشيه" عن رحلتها أنها كتبت بأسلوب مليء بالسعادة والهوى والطبع الحازم والذكاء المتوقد، ووصف موهبتها بأنها ليست خلاقة فحسب، بل إنها حدسية على نحو عجيب، وأنها موهبة لا تبتدع إنما تعيد إنتاج الواقع بأمانة لاذعة !

وتجدر الإشارة إلى أن الرحالة الأوروبيين الذين جابوا صحاري جزيرة

العرب والعراق وبلاد الشام وسيناء كان "البدو" موضوع اهتمامهم [1].
أكثرهم أنصف البدو وأبرز فضائلهم، والبعض الآخر أبرز مثالبهم في إطار نظرة غربية استشراقية لا تخلو من الإجحاف ونبرة شفقة على حياة هذا البدوي البائس !

وسوف أُركز على مشاهداتها وانطباعاتها عن البدو وتقاليدهم المتوارثة ونمط حياتهم في شبه جزيرة سيناء.. فكتبت : "يشتمل زي البدو على قميص بأكمام قصيرة، ويشدون هذا القميص عند الخصر بحزام عريض من الجلد المطرز، ويحشرون به خنجرًا معقوفًا، وقد ثبت شيخ القبيلة على حزامه مسدسات، و كان أحد البدو المرافقين يحمل بندقية محفوظة بعناية داخل غمد من الجلد، ويلقي بعضهم فوق بعض هذا القميص رداء من الصوف بخطوط سوداء وبيضاء، ويضعون فوق رؤوسهم المغطاة بالطربوش أو العمامة قطعة من

١- كان على رأس هؤلاء الرحالة : الضابط والدبلوماسي البريطاني الكولونيل "هارولد ديكسون" الذي أقام وعمل معتمدًا سياسيًا في منطقة الخليج وشمال جزيرة العرب نحو ربع قرن، كان والده القنصل البريطاني في دمشق، وعندما ولد هارولد تطوع الشيخ "مجول المصرب" زوج الرحالة البريطانية ليدي "دجبى"بتأمين مرضعة له من عشيرته "السبعة" أحد بطون قبيلة "عنزة" الشهيرة، وهذا ما منحه في نظر البدو – وكان موضع فخره – رباط الدم مع القبيلة، فمن يشرب حليب امرأة في الصحراء تصبح أمًا له بالرضاع، وهذه الحقيقة كانت عونًا له في التعامل مع البدو في هذه الصحراء الشاسعة، عاش معهم في خيام الشعر – الخيام السود – واندمج في حياتهم، وفي رحلات صيدهم وغزواتهم، وجاب مراعيهم في الربيع مع إبلهم وأغنامهم، وعرف عاداتهم وتقاليدهم وأدق تفاصيل حياتهم اليومية، عن نفوذ شيوخ القبائل، الخيمة البدوية وأثاثها، الشرف العربي، الضيافة، رابطة الملح والدخالة وحرمة النساء، غارات القبائل، الصيد بالصقور واقتفاء الأثر وتربية الخيول وسلالاتها والإبل وصفاتها، بالإضافة إلى قصص وحكايات ومغامرات البدو.. وتميز أسلوب ديكسون بالسهولة والوضوح والإثارة والتشويق، راجع : "عرب الصحراء" دار الفكر، دمشق، ط.ثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

القماش ذات لون غامق، يطوونها على نحو أنيق ليحتموا بها من شدة الشمس.. وللبدو جميعهم لون برونزي قريب إلى الأسود، ووجوههم لها هيئة نبيلة، ومعظمهم يلبس في السبابة خاتمًا من النحاس".

كانت الكونتيس خلال تنقلاتها بين مضارب البدو، تتساءل : رغم ظروف حياة البدو ومعاناتهم من الفاقة.. لماذا سلوكياتهم أكثر وداعة وأكثر اجتماعية ؟.. وفي واحة "وادي فيران" توقفت القافلة الصغيرة في استراحة طويلة، وتمددوا تحت أشجار النخيل وغمروا أيديهم في المياه.. كانت بعض العائلات البدوية هناك تملك أكواخًا مؤلفة من سور دائري مغطى بالأغصان اليابسة ومساكنهم هذه تقريبًا مهجورة الآن ولا يأتون إليها إلا وقت حصاد التمر، ثم رأينا على مسافة أبعد امرأتين محجبتين ترعيان قطيعًا من الماعز بين الصخور.. عدد من البدو ألقوا التحية على رجالنا واصطحبوهم لشرب الحليب في خيامهم السوداء، أدهشتنا الالتفاتات الودية السائدة بين البدو، فهم يأخذون بيد بعضهم عدة مرات وهم يكررون عبارة سلامات، وهم يتحدثون بعذوبة بالغة وبشيء من الصرامة، ويخرجون من عبهم الفواكة والشعير ويقدمونها لنا دون انتظار للبقشيش، وأنا لم أشعر بأمان مثلما شعرت به بينهم، كنت أشعر أني محاطة بأفضل البشر !..

عند الظهيرة غادرنا وادي فيران وأشجاره الباسقة وسحر خرير مياهه الجارية وتعمقنا في وادي سولاف.. كنت أكتب جالسة على الرمال في الغريز المصفر، على يساري وادي "سربال" العجيب وحولي تاج من الجبال الرمادية التي انسابت منها تلال جرانيتية..

غادرنا الشيخ "مبارك" الذي زرنا خيامه السود في عمق الوادي، وهو على جمل يتبعه "باهى" واثنان من البدو حيث ذهب ليقضي الليل بين قبيلته".

اجتازت قافلة الكونتيس وادي "مغارة" الذي اكتشف به المصريون القدماء مناجم الفيروز والنحاس في عصر الأسرة الأولى مرورًا بمقبرة الناسك "صالح" إلى وادي "الراحة" تحيط به قمم جبلية تعلوها أشجار الأكاسيا ثم واحة النخيل ومناطق امتزجت رمالها بالحصى والأحجار المصقولة، بعضها حافظ على ألوانه اللامعة، وأخرى تشبه المرمر الرقراق.. وشاهدوا غزالًا يجتاز الوادي في لمح بالبصر ومضى وسط الجبال من جهة الشرق.. حتى وصلوا إلى نبع خرج منه رافد صغير وأشجار نخيل قصيرة وسط أشجار التمر هندي تتناثر على أطراف وادي "جروندال" وكتبت : "كان هناك بعض من البدو يطحنون التمر هندي لإطعام إبلهم، قدموا لنا حليب النوق، وقد طفا الزبد على حواف الإناء، كان لذيذ الطعم واستمتعنا به جميعًا.. وفي طريقنا إلى وادي "أوسيت".. مررنا بقيعان السيول الجافة وبعض الهضاب، واقتفينا آثار الغزلان ثم انطلقنا نعدو صوب خيامنا المقامة قرب ثلاثة من أشجار النخيل، واتخذت الإبل الحاملة للحقائب أماكنها قرب النار، النباتات الشوكية تلمع والقمر يتلألأ عاليًا.. ياله من ليل ساحر بعد اثنتي عشرة ساعة من السير على الأقدام أو على ظهور الجمال".. وبعد أن أُنيخت الجمال قال باهي :"أعطوا الجمال التمر كي تحلي أسنانها" !

وعلى قمة جبل سيناء : أثر خالد وسجل تاريخى لمن يريد أن

يستطلع سر الذين شيدوا للخلود ويستحضر صور الرهبان "سر المحبة" محل الخوف من مواجهة ما يجل عن الوصف "الله محبه"..
دير سانت كاترين : الذي تروى الأساطير أنه شيد في ذات المكان الذي آنس عنده موسى نارًا فأراد أن يأتي منها بقبس، بالقرب من شجرة "العليقة"، وللدير سور عظيم مشيد بالجرانيت، جزء منه السور الأصلي الذي شيده "جوستنيان" ويحيط السور بعدة أبنية داخلية بعضها فوق بعض، أحيانًا أربعة طوابق، تخترقها ممرات ودهاليز، ومن اختلاف أشكال المباني يستدل الزائر على أنها شيدت في عصور مختلفة...

نزلت الكونتيس وزوجها الكونت ضيفين على رهبان الدير، وتحدثت عن انطباعاتها فكتبت : "كنت أراقب المصباح الصغير الذي كان ضوؤه يرتجف أمام الأيقونة، حتى تنبهت إلى النواقيس التي دقت باعثة ارتجافات قصية في الصمت المطلق، ثم فقدت وعيي بكل الأشياء حتى اللحظة التي رأيت فيها تسرب شعاع الشمس من خلال نافذتي الخشبية، كان فتح الباب يمثل لحظة مفاجئة قريبة إلى الانسحار لشدة غرابة المكان، كانت الأشياء العجيبة التي لمحناها بالأمس عند وصولنا موجودة في ذلك الصباح البارد منتصبة وحقيقية وواضحة إلى حد غريب تحت الضياء الأبيض الساطع، متراكمة وضعت بعضها فوق بعض بلا أفق لشدة ما كان الجو نقيًا، وصامتة كما لو أنها ماتت إثر شيخوخة ألفية، فكانت هناك كنيسة بيزنطية ومسجد وقلايات وحجرات صغيرة وحواجز وسلالم متشابكة وأروقة وأقواس صغيرة تهبط إلى المنحدرات،محاطة جميعها بالأسوار الضخمة،

ارتفاعها نحو ثلاثين قدمًا. معلقة على جوانب جبل سيناء العملاق، كانت الشرفة التي تنفتح عليها حجراتنا وتشكل جزءا من مجموع الأبنية التي لا عمر لها. بعضها أصبح أطلالًا. البعض منها باللون الأحمر الجرانيتي الأصلي، واكتسى البعض الآخر لون الكلس الأبيض، وعندما كنا نستنشق الهواء الطلق حتى أدركنا وجودنا على ارتفاع شاهق جدًّا. مع ذلك فقد كان هنالك ما يعلونا من جميع الجهات. كما لو كنا في قاع بئر. كانت جميع قمم جبل سيناء تنتصب نحو السماء، وجميعها من الجرانيت الأحمر القاني بلا ظلال عمودية. تصعد إلى الأعلى فتصيبك بما يشبه الدوار والرعب، والسماء صافية في زرقة رقيقة عميقة، والشمس ترسل ضياءها على نحو رائع. وكانت الثلوج البراقة مازالت تغطي كل شيء وتتوج أعالي الأسوار العتيقة ".

وسمح لها الرهبان بزيارة : غرفة المقدسات.. عدد هائل من الشمعدانات والأيقونات الذهبية.. وبين واحة النخيل وأشجار السرو واللوز والزيتون والبرتقال المزهرة استمعت إلى معجزات القديسة كاترين و "حكايات حقيقية وبسيطة عن الدير"..

كان نهار القافلة الصغيرة يبدأ في الساعة الرابعة صباحًا. حينئذ ينهض الجميع : الكونتيس وزوجها وجانيت وأنطونيو بادئين بترتيب ما بداخل الخيمة حتى لا يبقى سوى أن يضعوا الفرس والأغطية في الكيس، ثم يتناولوا إفطارهم مع أقداح القهوة.."وبينما يكون المرافقون منشغلين بتناول الإفطار بدورهم، نأخذ توراتنا ونذهب لنجلس على مبعدة خطوات أمام الشمس التي تسطع على الصحراء مثل كرة مشتعلة فنقرأ ونصلي، إنها لحظة مراسيمية وعذبة، تتركنا في غبطة عميقة "!

كانت الكونتيس وقد عايشت البدو تنظر إليهم بعطف كبير "هؤلاء الذين يتوارثون تقاليدهم القديمة وبساطتهم، نفوسهم الآبية قادرة على الإدراك والسيطرة على الأمور.. يعيشون على حبات قليلة من التمر وقدح من القهوة المرة ورغيف خبز.. لم تتغير حياتهم منذ آلاف السنين، يحكمهم شيخ القبيلة بقانون غير مكتوب، وهم أكثر شعوب الأرض فقرًا وأكثرها كرمًا وسخاء" !

إن ما يميز أسلوب الكونتيس "دى جاسباران" أنها تجعلنا نعيش معها في فضاء أدبي رحب، فهي لا تقدم مجرد بورتريهات صحراوية، بل صور نابضة بالحياة في إطار من الشاعرية.. وهل يمكننا القول بأن شاعرية الكونتيس الفرنسية تستلهم رومانسية الصحراء في مخيلتها الغربية !

وتمضي قافلة الكونتيس نحو " عيون موسى " فتجتاز هضاب وتلال رملية تحت شمس الظهيرة، وتلوح في الآفق بضع شجيرات، استراحوا عندها.. ولحظات من التأمل " إنها عيون موسى، ولا أدري لماذا لم يرد ذكر واحد منها في سفر الخروج، نبع الماء ينبجس من بركة بلون أبيض ترابي..شربنا منه باستمتاع كبير ثم تمددنا تحت أشجار التمر هندي في حديقة بدائية يقوم بزراعتها أعرابيان، ذهبا ليقطعا لنا البصل والفجل، فأخذنا نقضم منه حتى أتينا عليه كله، حتى الورق الذي يغلف البصل، فالمرء في الصحراء لا يأنف من الأشياء بسهولة..كانت العصافير تزقزق والحشرات تطن، جلست أسفل سور من أعواد الذرة، وأمامي حقل صغير مزروع بالبصل الأخضر، ونبات تغطيه الزهور، وكان زوجي يقرأ وهو ممدد على حافة البركة،

وحمل أسود يأكل من يده.. وعادت إبلنا تتهادى في صف طويل، ثم نصبنا خيامنا بين مجموعتين من النخيل شكلت فردوسنا !.. طابت ليلتكم، إن الاستمتاع بالشيء أفضل من وصفه " !

وكتبت "دي جاسباران" : " لا شيء يعادل عذوبة نزهتنا الصباحية" كانت هذة النزهة تستغرق نحو الساعتين مع شروق الشمس، كان الجو باردًا ودرجة الحرارة ست درجات، تنتشر الزهور في وادي أوسيت وشجيرات صفراء ونباتات رقيقة تتفتح في الرمال، عصفور يغرد على أعلى غصن.. " يبدو المشهد كفردوس وسط الصحراء، والصحراء بحد ذاتها جميلة، تمتد بلا حدود والروح تتسع فيها، مثلما الحال على قمم الجبال عندما تتصل الروح بربها مباشرة !.. فلا وجود لمشاكل الحياة، والأبدية موجودة هناك، والجبال الطباشيرية البيضاء وكتل الجرانيت تنتصب وتؤطر السهل.. سلكنا وادي طيبة ثم وادي المكتب إلى غابة سيناء، حيث مجموعة من أشجار النخيل، توقفنا تحتها، براعم الزهور تخرج من غمد أخضر في حزمة من الأغصان البيضاء مثل الشمع، وعثرنا في مكان أبعد على نباتات مثقلة بالزهور، وكان هناك قليل من الماء الراكد في عدد من التجاويف، قال البدو عنه أنه لا يصلح.. الأرض مغطاة بنترات البوتاسيوم والملح"..

وتمضي القافلة تطوي عدة أودية حتى تصل إلى قرب خليج العقبة " فتجلى لنا البحر فجأة بلونه الأزرق الحاد.. كان المساء هادئا، وشرعت الابل الطليقة من أحمالها بقضم نباتات الوادي اللذيذة "... ودخلت بهم الإبل وهم على ظهورها إلى الماء، وكل خطوة تخطوها الجمال تنفجر موجات في رشقات متتابعة، وتبقى الكونتيس على حالة التأمل وسمو الروح فتكتب:

"في تلك اللوحة سمة للعظمة والاكتمال، تمسك بالروح معلقة، ويلتقي فيها الإنسان باللامنتهى ويكاد يتوقف تفكيره حتى نبضات قلبه" !

لم يكن في المشهد تفاصيل كثيرة: أرض رملية شاسعة مرصعة بكتل من الجرانيت، انطبعت عليها آثار خطوات الضباع والغزلان، وشتلات شوكية تقبل الجمال على التهامها بنهم.. ألوان قوية وتناغم رهيب!

ومثلما رصدت الكونتيس مظاهر الطبيعة الصحراوية في سيناء، فإنها رصدت أيضًا سمات وتقاليد البدو وقد عاشت حياتهم في حلهم وترحالهم، في خيامهم وبين إبلهم، تناولت طعامهم وشربت قهوتهم، وتحملت وهج الشمس والعواصف الرملية، وبين وهاد وأودية سيناء وقمم جبالها : سمت بها الروح وارتقت عاليًا.. وكانت لها وقفاتها التأملية في الحياة والكون والعقيدة.. هناك في صحراء الأبدية، حيث صوت الإنسان في الصمت وآثار أقدامه في الرمال !

فلورانس نايتنجيل
وأروع الأماكن في العالم !

أصبحت العلاقة بين مشاهد الشرق والرحالة الغربيين أكثر شخصية وحميمية، هذه العلاقات الجديدة التي ولدت إحساسًا فريدًا بالدهشة، نابعًا من التباين بين العالم الذي أتى منه الرحالة والعالم الذي رحل إليه، وكان لهذا العالم تأثير على اكتشاف إمكاناته الشخصية والتعبير عنها، يجوب المشهد وحيدًا صامتًا – في نشاط – وهو يتلمس طريقه للوصول إلى قبس من الحقيقة الداخلية، وكان منهم كثير على وعي باللحظة التي تمس شغاف القلب حين كانت المشاهد حول الرحالة تميل إلى تجسيد الاستشراق الذي تعود أن يتأمله من خلال مدونات أدب الرحلة واللوحات والصور، وعبر بعضهم عن الإحساس بالاسترخاء وسعة الوقت وتأثير ذلك على سمو الروح والبهجة الخالصة التي يبعثها المشهد المصري في نفس الرحالة، وكانت أبرز نموذج لهؤلاء هي البريطانية : "فلورانس نايتنجيل".

هي رائدة علم وفن التمريض، ولدت في "فلورانسا" بإيطاليا في الثاني عشر من مايو عام ١٨٢٠ (وقد أصبح يوم ميلادها يوم التمريض العالمي) في عائلة بريطانية ثرية آمنت بأهمية تعليم المرأة، في عام

١٨٥١ تخرجت من قسم التمريض بمدرسة "الكايزر وارت" وتعد أول من وضع أسس وقواعد للتمريض الحديث وبرامج لتعليم التمريض وتدريس آداب المهنة، وضرورة أن تختص بها نساء مدربات، كما وضعت مستويات للخدمات التمريضية بالمستشفيات، فأسدت للبشرية خدمة جليلة وصنعًا جميلا..

تطوعت في "حرب القرم" عام ١٨٥٤ ونظرًا لجهودها في علاج جرحى الحرب، حظيت بتقدير الملكة "فيكتوريا" -(١)- والشعب البريطاني الذي تبرع لها بالأموال – خمسون ألف جنيه إسترليني – لإنشاء مدرسة باسمها "بيت نايتنجيل" بمستشفى : سان فنسان دي بول، وحرصت على الاختيار الدقيق للطالبات.. أطلق عليها "الممرضة الأولى" و "السيدة حاملة المصباح" لأنها كانت تخرج ليلًا إلى ميادين القتال حاملة مصباحًا بيدها للبحث عن المصابين.

عن طريق عائلتها، ارتبطت فلورانس بصلات قوية بكبار رجال السياسة ونجوم المجتمع، وقد بذل والداها كل جهد لإقناعها بالعدول عن هذه المهنة، فأرسلوها في رحلات طويلة في أوروبا وإلى الهند، ولكن أسفارها لم تزدها إلا إصرارًا على المضي في الطريق الذي اختارته لنفسها.

في التاسع عشر من نوفمبر عام ١٨٤٩، وصلت إلى الأسكندرية، موفدة من جمعية "سان فنسان دي بول" لزيارة المستشفيات والمدارس التابعة للجمعية وكتبت "تزدحم الأسكندرية براهبات

١- ملكة بريطانيا العظمى وإمبراطورة الهند (١٨١٩-١٩٠١) ارتقت العرش عام ١٨٣٧، توسعت في عهدها المستعمرات البريطانية، ودعمت سياسة التقارب مع فرنسا، خلفها على العرش ابنها إدوارد السابع.

الكنيسة الكاثوليكية وكنيسة اليعازريين والكنيسة اليونانية والأرمنية والبروتستانتينية والمسلمين".. وربط خيالها الرومانسي الأسكندرية بالإسكندر وكليوباترا، مثلما ارتبطت سيناء بشخصيات من التوراة والإنجيل !

كما لاحظت زحف ملامح المدنية الأوروبية الحديثة على المدينة، التي شهدت اهتمامًا خاصًا من "محمد علي باشا".. ولاحظت اختلاط وتنوع الجنسيات واللغات في شوارع المدينة مما يضفي عليها نوع من الخصوصية.. وقد حظيت "فلورنس" بزيارة "حريم الباشا" بسراي رأس التين.

وحينما وصلت القاهرة انتقدت الكثير مما شاهدته، ولكنها أحبتها، فكتبت: "القاهرة هي زهرة المدائن.. حديقة الصحراء، و لؤلؤة العمارة، إنها حقيقة أجمل مكان على وجه الأرض، ومن أعلى مسجد "محمد علي باشا" شاهدت أجمل منظر في العالم كله، فعند أقدام المسجد ترقد القاهرة العظيمة: غابة من المآذن والقباب والأبراج والمشربيات"..

وأعربت عن أسفها أن تطبع مصر بطابع أوروبي -(٢)- تحتذيه سائر

٢- انتقد عدد من الرحالة الأوروبيين مظاهر المدنية الأوروبية التي بدأت تطغى على الطابع المميز لقاهرة الشرق، منهم فرانسوا شاتوبريان و جيرار دي نيرفال والكونت جوبينو وبيير لوتي الذي خشى "ألا يلتفت المصريون إلى أن لهم تراثًا إن لم يتشبثوا به تلاشت إحدى مدن التاريخ الرائعة في زحام المدن الحديثة التافهة" !.. وأشار الفرنسي هنرى بايرون إلى وجوب الحفاظ على الجزء الأقدم من المدينة "ليوضح للأجيال القادمة كيف كانت مدينة الخلفاء، قبل أن تبنى بمحاذاتها مستعمرة كوزمو بوليتانية، فأصبح هناك قاهرتان : قاهرة مصرية وأخرى أوروبية، الرمال وألوان الصحراء تغشى قاهرة الشرق، وقدر لها أن يمتد احتضارها، بينما القاهرة الأوروبية تنفسح لأبنية وشوارع جديدة وأنيقة، الأولى هي قاهرة الفنانين، والأخرى لأنصار الصحة العامة والحداثة"!

بلاد الشرق، فقد وجدت فيها بلدًا فريدًا يختلف عن بلاد الدنيا "ففي تاريخ مصر يحتشد جنبًا إلى جنب : الكتاب المقدس وهوميروس والفلسفة واليونان وروما والمسيحية والهرطقة والرهبنة والإسلام والحروب الصليبية والحملة الفرنسية".. واجتذبتها في القاهرة : مشاهد الشوارع والأسواق والحمامات العامة وكثرة المقاهي ومواكب الختان والزواج وحلقات الدراويش وصخب الزحام !

وكان في رأيها أن أسواق القاهرة هي من "أروع الأماكن في العالم" -(٣)- !.. ووصفت جولتها في شارع "السروجية" وهي تمضي مأخوذة بمناظر المساجد والمساجد وواجهات الحوانيت والحمامات وتكايا الدراويش والمشربيات حتى وصلت إلى سوق "الخيامية" وأدبت انبهارها بجمال الصناعات الوطنية خلال جولتها بسوق "العقادين" وسوق المغاربة وسوق "العطارين" وسوق الصاغة وسوق النحاسين وسوق الجلود ثم سوق "السكرية" الذي لم تجد فيه دكان واحد لبيع السكر !.. إلى أن وصلت إلى "خان الخليلي" الشهير والذي مازال يحتفظ بأجوائه وسماته الشرقية، وأبدت إعجابها بحوانيت بيع العطور "زجاجات صغيرة متنوعة الأحجام والأشكال تزدان بنقوش مذهبة" وحرصت على تدوين – مفاوضاتها – من أجل شراء عدد

٣- كتب المستشرق الفرنسي أندريه ريمون : "ليس هناك ما هو أجمل من أسواق مدن الشرق. يمتزج فيها نبض الحاضر بعبق الماضي، مثلما تمتزج فيها الروائح والألوان والأزمان وأمزجة الناس.. تعددت الأسماء : بازار، قيسارية، قيصرية، قصبة، خان، سوق.. وأهم ما يميز السوق في المدن الإسلامية، الاستمرارية التاريخية، وعمارة إسلامية متميزة ورؤية حضارية وفكر اقتصادي وتقاليد متوارثة في المعاملات التجارية والاجتماعية". راجع الدراسة الوثائقية الهامة : Raymond, A. a Wiet, G.: Les Marches du Caire, IFAO, ١٩٧٩

من زجاجات العطر الجميلة !..وتكررت زياراتها لهذا المكان "بمظهره الشرقي جدًّا" !

وكدأب الرحالة في ذلك العصر، صعدت في "دهبية" على صفحة النهر الخالد إلى الأقصر وأسوان.. وفي كتاب بعنوان : "رسائل من مصر" نشرته شقيقتها "بارثى" كان واضحًا شغفها بتاريخ مصر القديمة وآثارها.. واهتمت بشكل خاص بتعاليم الحكيم المصري "تحوتي".

حرصت فلورنس على زيارة مدينة "أبيدوس" حيث ضريح أوزوريس – إله العالم الآخر – الذي تسابق الناس في ماض سحيق ليدفنوا موتاهم بالقرب منه. وتبدي أسفها أن تحولت هذه المدينة العظيمة إلى أطلال ولم يبق قائمًا غير معبدي "سيتي" و "رمسيس الثاني" المهديين إلى أوزوريس، وأشارت إلى الردهات الفسيحة والمقصورات الصغيرة وروعة النقوش في معبد سيتي وقد حملت أعمدته سقفًا سماويًا أزرق تنتثر فيه نجوم أشبه بسماء مصر.. وبقيت تماثيل أوزوريس وإيزيس وحورس وكأنها نحتت بالأمس كاشفة عن براعة فناني مصر القديمة فبلغوا ذروة الكمال الفني، وتضيف : "الصمت والجلال يحيط بمعبد سيتي إلا ساعة الغداء حيث تبسط الموائد فيتحلق حولها السائحون الإنجليز ليشوهوا بأحاديثهم وضجيجهم جلال المكان" !

وفي "طيبة" التي ألهمت العالم والفن والدين والجمال، أبدت إعجابها الشديد ببهو الأعمدة المشيد باسم "الإله آمون – سيد الحياة والخلود" وتشير إلى أن الآلهة المعبودة في مصر "كانت تتغير بتطور الفكر الإنسانى ماضية بمصر نحو التوحيد".

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر، كتبت: " مما لا شك فيه، أن المصريين المثقفين في مصر القديمة كانوا يعتقدون في الإله الواحد"..

وأطلال وشواهد أمجاد الفراعنة في "طيبة" تشعر المرء بضآلته كما كتبت فلورنس، وأضافت : "لقد شاهدت بحيرة آمون المقدسة، وقاعة احتفالات تحتمس الثالث الفسيحة بالكرنك – تعشش فيها الغربان – والمسلات القائمة أو الراقدة كأعواد اللوتس، وبهو الأعمدة – الذي يجل عن وصف روعته – منحوتة رؤوسها على هيئة زهرات، لم تتفتح بعد.. ستون عمودًا إلى اليمين ومثلها إلى اليسار.. والقمر يرسل نوره على الآلهة التي تحيط رؤوسها هالات التقديس... ويتجه الممر الرئيسي بالمعبد إلى الشمال الغربي بحيث تدخله الشمس في ساعة الغروب مرة واحد كل عام، فيضيء الممر كله وقتها وتعزف الموسيقى تمجيداً لإله طيبة العظيم، أية بداية للفكر الإنساني صنعها شعب لم يكن يفكر إلا في الخلود" !

وفيأثناء وجودها بين آثار القرنة غرب الأقصر، كتبت: "سمعت صوت الرب يناديني... اليوم أتممت الثلاثين وهو العمر الذي بدأ فيه المسيح رسالته، من الآن أترك الأشياء الصبيانية، فلا حب ولا زواج.. فقط أفكر في مشيئة الرب" !.. لقد اعتبرت فلورنس – مصر – مجالًا حيويًا لتبلور أفكارها ومرحلة تتجاوزها إلى حياة جديدة تمامًا !

وكان على "فلورنس" أن تتخلص بصعوبة بالغة من "سحر مصر القديمة" لتنجز المهمة الرئيسية التي أوفدت من أجلها وهي زيارة المدارس والمستشفيات التابعة للجمعية، وإعداد تقارير عنها.. وتودع فلورنس مصر التي أحبتها، فتكتب: "وداعًا مصر العزيزة، الجميلة

والنبيلة، البلد الذي أنتج عمالقة الحرب والفن والعلوم والفلسفة... وداعًا بدون أسف وبدون ألم – إلا الألم الشخصي– فلا يوجد ما نبكي عليه مثل النيل واهب الحياة.. بلد فاضت مآثره على العالم فنسمع الخالق وهو يقول: "حقًّا لقد أحسنت" !!

نور على نور

"ولنتوقف قليلًا أمام – لوسي داني جوردون – ملاك الرحمة تلك السيدة الرقيقة ذات القلب الذهبي التي وفدت إلى مصر تلمسًا للشفاء من دائها، ولنهمس لها في ود صادق : إننا أوفياء لذكراك وذكرى تعاطفك مع أهل مصر وهيامك بهم وهيامهم بك، حتى وقف على بابك يومًا شيخ العرب يطلب يدك بكل ما يملك، فقد بدوت في عينيه أميرة عربية عريقة جديرة بعنترة بن شداد أو بأبي زيد الهلالي "!

بهذه الكلمات الرقيقة ودع المفكر العالمي د.ثروت عكاشة "لوسي داف جوردون" في ختام كتابه " مصر في عيون الغرباء " *[1]

كانت الليدي إحدى نجمات المجتمع البريطاني، كان والدها محاميًا شهيرًا و أستاذًا للقانون بجامعة لندن، ووالدتها كانت سيدة أرستقراطية تكثر من حفلات الاستقبال، وأفادت لوسي من صداقات أمها بكبار الأدباء البريطانيين مثل : تينسون وكينجليك كارليل وثاكراي وشارلز ديكنز، بالإضافة إلى بعض الفلاسفة

١- د.ثروت عكاشة : مصر في عيون الغرباء – القرن التاسع عشر، دار الشروق، القاهرة، ط.الثانية، ٢٠٠٣.

ورجال السياسة... وقد بلغ من إعجاب هؤلاء الأدباء أن خلدوها في إبداعاتهم. فهي "الأميرة" في قصيدة تينسون التي اشتهرت بهذا العنوان. وهي "ليدي جوسيلين" في رواية ميريدث المعروفة "إيفان هارنجتون" كما تحدث عنها أكثرهم في مذكراتهم ويومياتهم. واقترنت بالسير "ألكسندر داف جوردون" وقامت في البداية بترجمة بعض الأعمال من الألمانية إلى الإنجليزية.

في السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٦٢ وصلت إلى مصر الليدي " لوسي داف جوردون" نموذج للمرأة الفيكتورية الأرستقراطية. وهي في الأربعين من عمرها. لتعيش في مناخ دافئ قد يساعد على شفاءها من داء السل. وقضت في مصر سبع سنوات حتى الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٨٦٩. وكانت تقضي شهور الصيف في لندن. ثم تعود إلى مصر بحلول الشتاء.. نزلت أولًا في " حلوان " لعل هواءها الطيب يرد إليها بعض ما فقدت.. في القاهرة. وقبل رحيلها إلى الأقصر أو " طيبة " كما كانت تؤثر أن تسميها. وتشتهر بهذا الاسم في الأدبيات الغربية..

كانت قد تعرفت بأرمنى فاضل " هككيان بك " وهو من أسرة معروفة خدمت " محمد علي باشا " وكان يشغل وظيفة : ناظر مدرسة الفنون والصنائع. ومن خلال أحاديثه مع لوسي كان يبدي تعاطفًا كبيرًا مع المصريين. وقد صحبها في زياراتها لكثير من أحياء القاهرة الفقيرة زاد حبي لها. هنا توجد قذارة الإهمال. والمصريون لا يقلون في مضافتهم عن العادات الشخصية لجنتلمان إنجليزى"..وفي مجال المقارنة أضافت :" أشعر بالحيرة حين اكتشفت أنه

لا يوجد فارق بين الأخلاقيات الإسلامية والمسيحية أو في العقيدة، لا يوجد هنا أحد يحاول تطبيق معايير أخلاقية مختلفة، إن الفرق هو بين الشرق والغرب، وليس بين المسلم والمسيحي"..

انبهرت لوسي بفنون العمارة الإسلامية في الجامع الأزهر و في جامع ابن طولون، وجامع عمرو بن العاص، ومدرسة السلطان حسن درة العمارة الإسلامية، ومشاهد الحياة في القاهرة أعادت اليها مشاهد ألف ليلة وليلة !

ثم رحلت إلى " الأقصر " في الثاني عشر من يناير عام ١٨٦٤ واستقرت في " بيت فرنسا "..الذي شيد على ربوة ترتفع خمسين قدمًا، مطلًا على النيل ويواجه مسجد " أبي الحجاج" قطب الصعيد الشهير، شيده قنصل بريطانيا المعروف "هنري صولت " وعاش فيه أيضًا " بلزوني " أكبر مهرب للآثار المصرية !.. كما عاش فيه العالم الفرنسي الشهير " شامبليون" وأقام فيه كذلك ضباط البحرية الفرنسية الذين رافقوا المسلة المصرية، القائمة اليوم بميدان " الكونكورد " في باريس.

في هذا البيت الضخم عاشت لوسي، وعلى الرغم من مشاعرها الرقيقة، فضلت في بساطة شديدة أن تتعرف بالناس من حولها، فخالطت الفقراء والمساكين من أفراد الشعب، عايشت حياة البسطاء فبادلوها حبًا بحب، تداوي المرضى منهم وتشاركهم أفراحهم وأتراحهم، وتشعر بالمظالم الواقعة عليهم، وتتبادل الأحاديث مع الشيوخ والعلماء والعامة.. فتبوأت مكانة كريمة بينهم وأحاطوها بكل تقدير فأطلقوا عليها " البشوشة " و " الشيخة " و " نور على نور"!

عندما استقرت في " بيت فرنسا " بالأقصر، كتبت إلى زوجها السير ألكسندر داف جوردون : " إن هذا البيت يزداد جمالًا في عيني يومًا بعد يوم.. إنه مسكن واسع الأرجاء، جميل، تهفو إليه النفس، وإني آسفة لأنك لست معي الآن حتى تنعم بما أنعم به "!

ودعاها بعض القوم لزيارة مزرعته، وتحت تأثير رومانسيتها تصف الليل والأضواء والألوان ونور القمر، فكتبت "جلسنا في جوسق يتوسط حديقة تحيط بها أحواض الخضروات، وشربنا لبنًا طازجًا، الجوسق نظيف مصنوع من عراجين النخل، وشهدنا القمر يرتفع وراء الجبال فيغشى نوره كل شيء في نعومة مذهلة، ونرى الألوان في ضوء القمر والليل يبدو كما لو كان نهارًا رخوًا موحشًا، يلفه السحر حتى كأنك في حلم من الأحلام الجميلة "!

في نهاية شهر إبريل عام ١٨٦٤، صعدت في النيل قاصدة أسوان وتشاهد معبد " فيله ".. ونامت ليلتها على سطح المعبد " النجوم تتلألأ والقمر ينشر نوره والنخيل أكثر رشاقة والصمت يحيط بالمكان.. يالها من ليلة ومنظر ساحر.. وفي الصباح، توجهت نحو بهو الأعمدة وغفوت قليلًا وراودتني الأحلام حتى صحوت على قبلة من آمون رع على وجنتي اليسرى "!.. ثم استمتعت بالسباحة في نهر النيل..

وتحدثت لوسي عن بعض الشخصيات التي كان لها أثر خلال إقامتها بالأقصر، منهم خادمها المطيع الأمين " عمر أبو حلاوة " الذي عمل على توفير كل أسباب الراحة لها، ثم الشيخ " يوسف أبو الحجاج " وهو من سلالة أبي الحجاج صاحب المقام الشهير، وكان من

مجاوري الأزهر، ومحفظًا للقرآن الكريم ومفتيًا في الأمور الشرعية. وتعلمت منه الكثير عن العقيدة الإسلامية والتسامح الديني وأصول المعاملات الشرعية " إنه أجمل مخلوق رأيته من حيث الهيئة والأدب والرقة والبساطة ".. ثم " مصطفى أغا " و " سليم أفندى " حاكم الأقصر والشيخ " إبراهيم القاضي " والخادمة " سالي " التي كانت تشرف على تنظيم البيت..

وتزخر رسائل الليدي لوسي بوصف المواقف الأخاذة التي تمس القلب والمشاعر.. وقد اعتادت على أساليب المسلمين في حياتهم، فتقول " بسم الله الرحمن الرحيم " عندما تشرع في عمل ما، وتقول " إن شاء الله " إذا عزمت على شيء، واذا أعجبت بشيء قالت " ماشاء الله "!

وتسجل رأيها في المعتقدات والاحتفالات الدينية ليس مار جرجس في الواقع إلا آمون رع إله الشمس، ولا يزال موضع التقديس عند الجميع، أما السيد البدوي فهو صورة أخرى لأوزوريس، ويحتفلون به مرتين في السنة في طنطا... والنساء المصريات حتى اليوم يطفن بالتماثيل القديمة حتى ينجبن أطفالًا، والاحتفالات بالموالد ليست من الإسلام وإنما هي مصرية قديمة !..

وفي نهاية الاحتفالات بمولد الشيخ أبي الحجاج، شهدت مسيرة الموكب الذي يحمل فيه المريدين على أكتافهم الكسوة الخضراء الجديدة للضريح والمركب القديمة المقدسة، فكتبت: " يخيل إلى الموكب ينبعث من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس مثلما كان يحدث في الأزمنة القديمة، مع فارق أن الفراعنة كانوا في ذروة أبهتم وجلالهم "!

وتقبلت لوسي نظام الرق ونظام الحريم في حياة المصريين.. وكان " حسن بخيت "عبدًا اشتراه طبيب إيطالى، استغنى عنه عندما أصيب بالرمد، فعنيت به لوسي حتى تحسنت صحته، وألحقته بخدمتها، حتى أصبح رئيسًا للخدم، وتحدثت عن عنايته بمظهره وخلقه الكريم ونظامه الحازم مع سائر الخدم..

وفي الرابع من أغسطس عام ١٨٦٤، كتبت في رسالة لوالدتها أنها شهدت الاحتفال بمولد النبي و "الدوسة العجيبة "*(٢) ودخلت إلى " حريم تركي " وأشادت بالحياة الراقية فيه، وبالملابس والأثاث والجواهر والطابع الخاص الذي يميز النساء.. لقد تقبلت لوسي المجتمع المصري كما وجدته وكما حاولت دائمًا أن تشبع هذا الخيال الذي نسجته لنفسها !.. لقد وجدت لوسي من المشاغل الاجتماعية والفكرية ما أنساها آلام مرضها.. وفي خطابها التالى تشيد بجمال مصر وارتوائها من نسيم الشمال وهي جالسة في شرفتها " أشعر أننى في تحسن يوما بعد يوم، أخرج من البيت في السابعة أو الثامنة

٢- "الدوسة" كانت من أبرز طقوس الاحتفال بمولد النبي، واختص بها شيخ الطريقة السعدية، وكانت تقام في ميدان الأزبكية ثم انتقلت إلى ساحة المولد بميدان الخلق، وفي إيجاز شديد تبدأ بوصول شيخ السادة السعدية إلى الساحة على حصانه، فيقرأ أتباع الطريقة والمدعوين الفاتحة، ثم ينبطح أكثر المريدين على وجوههم في صف طويل، ثم يمر الشيخ فوقهم بحصانه يقوده اثنان من أتباعه، يسبقه عدد من الدراويش يمشون وقد خلعوا أحذيتهم، على ظهور رفاقهم الممددين، بينما يردد الجميع لفظ الجلالة والابتهالات و تدوي الطبول وترتفع الرايات والبيارق، وقيل أن المنبطحين كانوا يرددون أدعية و أوراد تجعلهم قادرين على تحمل دوس الحصان بالإضافة إلى كرامات الشيخ السعدى.. وقد أبطل الخديو توفيق هذا الحفل العنيف، وأشار اليه عدد من الرحالة الأوروبيين، أبرزهم الرحالة المستشرق البريطاني الشهير "إدوارد وليم لين" في كتابه "المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم، ١٨٣٣-١٨٣٥" ترجمة : عدلي طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٠.

صباحًا على ظهر حماري الأسود الصغير ثم أعود لتناول الإفطار نحو الساعة العاشرة.. ثم أخرج مرة ثانية نحو الساعة الرابعة "..

وفي يناير ١٨٦٥، أشارت في رسالة لوالدتها أنها قضت أسبوعين في الفراش عندما تدهورت صحتها، فبادر " عمر " بعلاجها ب "كؤوس الهواء " على الطريقة المصرية.. وأصدقاؤها في القاهرة قرأوا القرآن الكريم كله من أجلها، بينما قام بعضهم بايقاد الشموع في ضريح السيدة زينب والدعاء لها بالشفاء..

وتحدثت الليدي لوسي عن مظاهر انتشار الطاعون.. كما تناولت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأشارت الى أن الشعب المصري قد شهد شيئا من الرفاهية في عهد " سعيد باشا" عندما رد للفلاحين بعض حقوقهم بتملكهم الأرض التي يزرعونها فزاد الإنتاج..إلى أن قام على حكم مصر " أفندينا " آخر، كان متشبعًا بأفكار الحداثة الأوروبية ومشاريع طموحه.. ونرى البناء والتشييد من ناحية كما نرى الإسراف والتفريط من ناحية أخرى.. وغدت البلاد في حال من الاضطراب، بينما تدهش وهي ترى " دهبيات السائحين تحمل الأوروبين في رواحها وغدوها، وهم بمنأى عن الأحداث ولا يحاولون التعرف عليها، وعندما أذهب لأجلس إليهم وأتحدث معهم أشعر بأنهم أجانب عني فقد أصبحت " بنت بلد " حقيقية !

في مارس عام ١٨٦٥، زارت لوسي معبد الكرنك، وتعددت زياراتها للدير البحري ومعبد فيله والتقت من الفنانين والمصورين الفرنسيين

والألمان، كما لاقت الرحالة البريطاني الشهير " وليم بالجريف"*[٣] الذي نازعته عبدها " مبروك " وقد ارتحل بالجريف بجزيرة العرب وبلاد الشام والهند وكتبت عنه "إنه أحد المثقفين الإنجليز الذين كانوا يرحلون في بلاد العرب، إنه مارق عن دينه الذي ولد عليه، وضابط وقسيس ومبشر ومستشرق ورحاله.."

والتقت أيضًا " ماريت باشا " الذي عينه" سعيد باشا " أمينًا على الآثار المصرية، وأمده الخديوي إسماعيل بالمال والرجال، وقد أدى ماريت باشا خدمات جليلة للعلم والعلماء في مجال المصريات، غير أن الليدي لوسي تساءلت " هل كان ماريت على شهرته العلمية أمينًا حقًا على آثار مصر التي اؤتمن عليها "؟!.. وتشير في رسائلها إلى أن الكثير من كنوز مصر الأثرية قد نهبت وأخذت طريقها إلى متاحف أوروبا وأن " شبح بلزوني مازال قابعًا في صعيد مصر "!

حاولت الليدي لوسي أن تمزج بين شخصيتين: شخصيتها الأوروبية المتأثرة بالأفكار السياسية السائدة في أوروبا، وشخصيتها الشرقية الإسلامية التي بلغت القمة في التمسك بالتقاليد، ولم لا وقد وهبت خيالًا خصبًا رائعًا، لقد كانت شديدة الإعجاب بكتب والدها " جون أوستن " في الفقه القانوني وفي فلسفة القانون وعن الدستور الإنجليزى.. في نفس الوقت، كانت شديدة الإعجاب بالشريعة

٣- الرحالة البريطاني "وليم جيفورد بالجريف" ١٨٢٦ - ١٨٨٨، قام برحلة إلى الجزيرة العربية ١٨٦٢ - ١٨٦٣ وصدرت في مجلدين بعنوان : "Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia" وينتمي بالجريف إلى عائلة فيكتورية يهودية، ثم اعتنق الكاثوليكية، وجمع بين الجاسوس والمبشر، وله أبحاث عن تاريخ الوهابيين وسياساتهم، كما قام برحلات إلى سوريا ولبنان والهند وتركيا والسودان، راجع : R.Bidwell : Travellers in Arabia, London, ١٩٩٤

الإسلامية فيما يختص بنظام الأسرة والأحوال الشخصية.. وعندما زارت " سليم أفندي " التقت زوجته التي جاوزت الستين من عمرها. فشاهدت فيض من كرم النفس وحسن العشرة وحكى لها " سليم أفندي " عن قصة الحب الطاهر الذي جمعه بزوجته منذ عهد الصبا ونما في قلبيهما..

وفي الخامس والعشرين من ديسمبر ١٨٦٥، تكتب في رسالة والدتها " أهداني القاضي كتابًا رائعًا في الصلاة عنوانه – مرشد المؤمنين – كتب في دارفور، حروفه جميلة، وزخارفه فريدة، وتجليده فاخر، ويحتوي على أسماء الله، وأسماء الأنبياء، وصفات النبي، وطلب مني أن أحتفظ به ولا أعطيه لأحد مطلقًا – فمثل هذة الكتب لا تشترى بالمال – وقد اشتريت حجابًا من أجمل ما يكون منقوش عليه حرباء على قشرة من المينا، كما حفرت بالنقش آية الكرسي بشكل رائع ويرجع تاريخه إلى ٢٥٠ سنة مضت "!

وقد تُثار دهشتنا عندما نرى أن العقل الذي تغذى بفقه القوانين وترجم " تاريخ بروسيا " وتشبع بالأفكار السياسية الحديثة، يتقبل في نفس الوقت الأحجبة والتمائم.. ولعل الشخصية الفنية هي التي كانت تغالب الشخصية الفكرية !

وفي يناير عام ١٨٦٦، تعرضت لوسي في رسائلها لأسلوب الحكم في مصر " فإسماعيل له رؤيته في إقامة حكم شبه برلماني وشكل مجلسًا للشورى وأشادت بعض من الصحف بهذا الفتح الديمقراطي في تاريخ الشرق "ورأت الليدي أن ذلك كان استجابة للعناصر المصرية المثقفة من دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي، ولكنها كانت

غير مقتنعة بأن إسماعيل باشا كان جادًّا في إقامة مجلس شورى حقيقي !

وتتطرق في رسائلها الى الحديث عن د. " عثمان إبراهيم " الوحيد الذي قابلته من المثقفين المصريين، وحواراتهما في الأدب والفلسفة.. وعندما بدأت صحتها تتدهور مرة أخرى " أوصاها أن تأخذ حمامًا من الرمال الساخنة وأن تستخدم امرأة دنقلاوية لتدليكها "!

في مارس عام ١٨٦٧ زارتها ابنتها " جانيت" وزوج ابنتها " هنري رس " وأقاما معها في " بيت فرنسا "وارتحلوا جميعًا إلى " إسنا " و " أسوان " وتكتب لوسي "إن جانيت لن تتحمل الشمس الكثيرة ولن تحبها كما أحبتها هي... أنا التي أعبد –آمون رع – وأشعر به في علياء مجده "! وبهرتها أسوان في موقعها الجميل، وانتقلوا إلى البر الغربي في قارب إلى جزيرة "فيله " وتخطوا الشلال الأول " وكان المشهد أكثر من رائع "..

وفي السابع من مايو، عادوا جميعًا إلى الأقصر، وتستقبل " جعفر باشا " حاكم السودان وتشيد بأدبه وبساطته " جنتلمان يمتاز بالخلق الكريم " وتستقبل شاعرًا من شعراء الربابة في الصعيد، فيسدوا بأعمالها ويسميها " زهرة العرب" ويدعو الناس إلى الحج إلى بيتها..

كما أطلق عليها أيضًا " ذات النورين التي أضفت على الصعيد نور على نور "! وفي نهاية شهر مايو، تعود إلى القاهرة على متن السفينة " أورانيا " أو " العروس الغالية " كما سماها بحارتها.. احتشدت المركب بكثير من الناس المتوجهين لزيارة أبنائهم من المجاورين بالأزهر، ومعهم اكداس من اللحوم والطيور والدقيق والعدس

والخبز... وخلال وجودها بالقاهرة، وصلتها الأنباء بأن " بيت فرنسا" متصدع يكاد ينهار.. وترجع إلى الأقصر فتجده قد تحول إلى ركام!.. كانت الصدمة عنيفة بنهاية " بيت فرنسا".. وتجتر أحزانها وهي تقيم في مركب مع خدمها، تتجول بها ما بين الأقصر وإسنا و أسوان حتى يناير ١٨٦٩.. وتكتب إلى ابنتها أنها قضت ليلة عيد الميلاد في إسنا حيث " أقيمت فانتازيا مصرية.. رقص الغوازي – زينب وهلالية – وشدا " رمضان "بأغاني ومواويل الغرام على الربابة وكأنه يستخرج منها نوحًا كأنه نوح " إيزيس " على فقيدها " أوزوريس " وتجاوب معه البحارة والتجار.. لا شك أن ما شهدته موروث من ماض سحيق يتجاوز الأربعة آلاف عام، صورة حية رائعة ".. وتمنت لو أتيح لها أن تكتب عن العقائد في مصر، ولكن المعرفة التي اكتسبتها سوف تموت معها.." لقد عرفت الرجال، وعرفت أيضًا النساء وهو أمر - بلا شك – أصعب من معرفة الرجال !

وفي الخامس عشر من يونيو، كان مشهد " الوداع الأخير " وهي ترحل من الأقصر إلى " بولاق " ثم إلى حلوان والبدرشين.. وتزداد وطأة المرض عليها، حتى أرسلت في الثالث عشر من يوليو برسالة" نعت فيها نفسها إلى زوجها ألكسندر" وكانت وفاتها في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي.

لقد جمعت الليدي " لوسي داف جوردون "بين الجمال ورقة الشمائل ورهافة المشاعر والقلب الكبير والحكمة والبساطة والثقافة الرفيعة.. وفي القلب من كل ذلك حبها لمصر والمصريين، فكانت حقًا " بنت بلد" و " نور على نور"!

جولييت دي روبرسا
فى "دهبية" على صفحة النهر الخالد

الرحالات والأديبات الأوروبيات اللاتي رحلن إلى مصر..كن مزودات بقراءاتهن عنها في المصادر الكلاسيكية والآداب المعاصرة والاستشراق الأكاديمي. إلا أن الناحية الجمالية البحتة هي التي طغت على رحلاتهم واستأثرت بأفكارهن و اهتمامهن. بعد أن اجتذبهن سحر مصر الشرق. فعايشنها و أندمجن معها جماليًا وخياليًا. فلم يحفلن بالنصوص المأثورة عن المستشرقين المعاصرين وبمحاولاتهم المتعالية الإبانة عن سيطرة.. الغرب على الشرق. وقد أفاض سحر مصر وخصوصيتها على وجدانهن. فحفلت كتاباتهن بذخيرة أدبية رفيعة. كانت منهن الكونتيس "جولييت دي روبرسا"..

زارت الكونتيس دي روبرسا مصر في بداية عهد الخديو إسماعيل عام ١٨٦٣. و دونت مشاهداتها وانطباعاتها في كتابها : "الشرق مصر – يوميات رحلة". وفي يومياتها لم تكتب الكونتيس كرحالة تدون ملاحظاتها بدقة ومهارة. ولا كرحالة حاولت أن تستنبط درسًا أخلاقيًا من ملاحظاتها للناس وعاداتهم وأخلاقهم. ولا كرحالة أرادت أن تثري المعرفة الغربية عن مصر وآثارها.. بل كتبت بحس فنانة

اعتبرت خبرتها ومشاهداتها موضوعًا يدفعها للإبداع. وقد نجحت في إيجاد نقطة تواصل بين المشهد والرحالة مما ساعدها على أن تبحث وتدهش وتجمع انطباعاتها في رؤية خاصة بها..

لقد خيل إليها في البداية، أنها تخطو حالمة في إحدى المدن البائدة وسط بيوت ومساجد ووكالات وأسوار وبوابات متداعية، لكن سرعان ما انفتحت أمامها الآفاق في شوارع وأسواق تمور بالحركة وصخب الزحام والألوان الصارخة والأزياء العربية والتركية وروائح البخور والعطور وكأنها "تحت الخطى وسط حفل تنكري" !

وحرصت على تدوين انطباعاتها عن "شبرد أوتيل" فكتبت : "ذلك الفندق الذي يفاخر في إعلاناته بأنه المكان المفضل للعائلات الملكية والإمبراطورية والأرستقراطية.. ويعلن عن وجود – دهبيات– ورحلات في النيل حتى جزيرة "فيلة" ، ولقاءات تعارف وسباقات العدو ومباريات التنس، وإقامة أسواق خيرية وحفلات تنكرية راقصة. شبرد أوتيل هو محور الحياة في القاهرة، و زواره عندما يجتازون مدخله الرئيسي، ينحون جانبًا كتب "الدليل السياحي" فهنا كل تفاعلات الحياة القاهرية، وتتألق في مراته رؤى الحياة الباريسية : نبلاء، تجار مرسيليا، أثرياء لندن..."

وأبدت إعجابها بطعام العشاء في مطعم شبرد : "توليفة غريبة.. مطبخ فرنسي ذو مسحة إنجليزية، معظم النزلاء إنجليز، الخدو ذوو البشرة الداكنة تعلو رؤوسهم عمامات بيضاء، وتميزهم الصديريات المطرزة ذات اللون الأرجواني.. وترى النزلاء يتحلقون حول الموائد ربما طبقًا لنوع المهنة أو العمل الذي يجمع بعضهم، فهذا ركن الخبراء

بشؤون السياسة الدولية، وركن للمصورين، وآخر للعلماء، وذاك ركن الكتاب والمراسلين الصحفيين، كل ذلك بدون تخطيط. وقد ينتقل بعض النزلاء والزوار من ركن إلى ركن، ويتناولون القهوة التركية أو الأوروبية، وتتصاعد أدخنة السيجار الفاخر، بينما أطباء ألمان يتحدثون في الفن والجمال مع فنانين فرنسيين، ورجال أعمال وجنرالات يتحدثون إلى صحفيين.. والمشهد من سطح "شبرد أوتيل" مفعم بالحركة والحياة، خاصة في ذروة الموسم السياحي، النزلاء و الزوار جالسين في استرخاء يستمتعون بالقهوة والتدخين سواء في شرفات الفندق أو بامتداد حدائقه تحت ظلال الأشجار والنخيل حيث تتهادى أسراب البجع !.. وحيث يتناثر الجمال الأوروبي وتتألق الأزياء.. وتنزوي سيدة إنجليزية رائعة الجمال ترتدي فستانًا أبيض مشغول الصدر، وتزدان بقبعة بيضاء و أسدلت على وجهها الجميل خمارًا أبيض خفيفًا، وقد اندمجت بالتأكيد في رواية عاطفية، تقرأ باستغراق تام، بينما تتابعها بشغف عيون وقلوب المعجبين !

وتطل على مدينة القاهرة من فوق قلعتها الشامخة، فكتبت : "ينفتح أمام أعيننا مشهدًا تتصدره مدرسة السلطان حسن – درة العمارة الإسلامية – وتموج من ورائها مدينة القاهرة، آلاف الشوارع تتوسطها الميادين وتتجاور فيها المساجد المملوكية والعثمانية والوكالات والأسبلة، وتتوزع فيها مئات الحدائق الغناء بأشجارها الباسقة، وقد تخلو القاهرة من أماكن اللهو والمرح، ولا نجد تخطيطًا معماريًّا موحدًا، ولكن لعل هذا التخطيط المتميز بالتحرر من قيود التماثل هو سر جمال المدينة الهادئ، وهي مدينة كبيرة فسيحة

عميقة الأثر بطابعها المتفرد. نابضة بالدفء والحياة ومواضع الجمال.. على أن القاهرة التي نراها اليوم ليست تلك قاهرة الشرق ابنة العصور العتيقة المتعاقبة التي أضافت إليها الكثير من الأبنية والمعالم".

وتأسف الكونتيس "جولييت" حين رأت ملامح الحضارة الأوروبية تطغى على قاهرة الشرق بماضيها العريق.. والقصور المشيدة التي تشبه الثكنات العسكرية "وتحاكي تطلعات البورجوازية الفرنسية"!

وفي رحلتها صعودًا في النيل. استقلت الكونتيس جولييت "دهبية" كعادة النبلاء والطبقة الأرستقراطية الفرنسية والإنجليزية. بشكل خاص. وفي هذه الدهبية "قضت أيامًا لا يمكن أن تنساها" ووصفت الرحلة في النيل بأنها "من أجمل الرحلات التي يمكن أن يقوم بها الإنسان في حياته" باعتبارها الأكثر تنوعًا وثراء في مناظرها. وكتبت : "وعلى ضفتي هذا النهر التاريخي مازالت بقايا الجاذبية الساحرة لحضارة مصر القديمة. مشاهد هي الأكثر روعة.. جبال شامخة. وصحار مهيبة. أشجار باسقة وبساتين عامرة. معابد يحيطها الجلال والرهبة وسراديب غامضة ومقابر تمتد في الصخور.. وجميعها تمنحنا أصدق معاني الخلود. وإذا كانت أهرامات الجيزة ومقابرها تمثل ذروة اهتمام الرحالة والزائرين. فهي مجرد بوابة للكنوز الأثرية التي يزخر بها صعيد مصر"..

ومن على سطح الدهبية. تكثر من النظر إلى مياه النيل – الصفراء المحملة بالطمي – وتعتقد أنها : مرهقة بسبب رحلتها الطويلة !.. وتذهب بها الأفكار إلى أعماق التاريخ وما شهده النهر المقدس من أحداث.. وحلم كليوباترا السرمدي ، الذكرى العظيمة

للآلهة. شمس الفراعنة الذهبية.. و "أهرامات سقارة الحادة الرمادية تنتصب على خلفية الأفق القرمزية الخلابة. وتتابع مناظر الطبيعة. غابات النخيل والحقول الخضراء بتأثيرها على النفس. لقد أخذنا ندخن بارتياح ونتجاذب أطراف الحديث أو نقرأ ونحن نستمتع بجلستنا على ظهر الدهبية. ننعم بالنسمة النقية التي بردها النهر. وبروائح النباتات الأفريقية العطرة. وبأشعة الشمس الرائعة".

وكلما توغلت جنوبًا. لاحظت ازدياد سمرة الناس وبساطة ملابسهم. وتوالي مناظر حقول القمح والذرة وقصب السكر. أشجار النخيل المثقلة بثمراتها ومساكن الفلاحين والسواقي.. وأمام "ساحل سليم" تتوقف الدهبية ويقدم ربانها "القرابين المعتادة للشيخ سليم" ويتلقى البركات من سدنة الضريح. فلولا هذه الهدايا والعطايا – طبقًا للمعتقد الشعبي حتى يومنا هذا – لأصاب المراكب والسفن صعوبات وقد تتعرض للهلاك المحتوم !

وتستمتع بأمسية – غنائية راقصة – في "أخميم" وتلبي و رفاقها دعوة الوكيل القنصلي في جرجا. وهو قبطيٌّ ثريٌّ. أثاث البيت شرقي مع بعض اللمسات الأوروبية.. وفي طريقها إلى "العرابة المدفونة" تلاحظ حركة دؤوبة في المروج الخضراء وتزايد أبراج الحمام. وتحرص على التجول في "أبيدوس" وتسجل انطباعاتها. فكتبت: "قريبًا من حافة الصحراء. تقع بقايا – أبيدوس – وهي من عصر الأسرة الفرعونية السادسة (حوالى ٣٣٠٠ ق.م) وكان اسمها القديم "أبيدو" جدرانها الخالدة تزخر بالنقوش التي تذهل الرحالة والسائحين. وكانت مقبرة مخصصة لأوزوريس. ومن هنا كانت أمنية

المصريين القدماء أن يجدوا في هذه البقعة المقدسة – مثوًى أخير – في رمال الصحراء. فثمة معابد لأفراد. ومقابر ضخمة لبعض ملوك مصر. تغري الزوار بالوقوف إجلالًا لملك الموتى أوزوريس الطيب. ومن أهم المبانى الأثرية التي تعرضت للنهب : سيتي الأول ومعبد ابنه رمسيس الثاني (١٣٠٠ ق.م) ويتميز معبد سيتي الأول بالنقوش والكتابات الهيروغليفية التي تغطي جدرانه وأعمدته. في فترة تمثل أزهى عصور الفن المصري القديم. كما اشتهر هذا المعبد بالقائمة التي تضم سبعة وسبعين فرعونًا من ملوك مصر القديمة. وهي بالغة القيمة في أبحاث التاريخ المصري القديم.

وقامت الكونتيس بجولات صيد في العرابة المدفونة والبلينا. والتقت بعالم المصريات "برجش باشا" الذي أهداها بعض القطع الأثرية الصغيرة.. وتلاحظ الفلاحون وهم يقودون إبلهم ومواشيهم من مياه النيل. في آخر النهار. بينما بعض الرجال يتوضأون. وبعض النساء بملابسهن الزرقاء المبتلة فتلتصق بأجسادهن الرشيقة. يحملن جرارهن "إنها نفس الجرار التي استخدمها الفراعنة وهم نفس البشر الذين رأيناهم مصورين على جدران المعابد" !

ومضت الكونتيس إلى "طيبة" التي كانت منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد. وطوال ألف وسبعمائة سنة العاصمة المتألقة للإمبراطورية المصرية. وهناك التقت بعدد من الشخصيات الهامة : مارييت باشا. روزيتى القنصل التوسكاني الشهير. واستفادت كثيرًا من علمهما. وكان برجش باشا دليلًا ومعلمًا خلال جولتها بين آثار الكرنك العظيمة. وكتبت : "معبد الكرنك كان فيما مضى يرتبط بالأقصر بطريق طويل – طريق أبي الهول – والمعبد عبارة عن عدة

مبان تعود إلى عصور تاريخية مصرية مختلفة، فكل ملك كان يشعر بأن لزامًا عليه أن يخلد ذكره بتشييد مبنى، لذا فإن تاريخ مصر طوال هذه القرون قد مثل في هذا المعبد الإمبراطوري، وهؤلاء الفراعنة العظام هم : تحتمس الثالث وشقيقته حتشبسوت وهما اللذين شيدا مسلات الكرنك والنقوش الأثرية تسجل انتصارات تحتمس الثالث في آسيا وأفريقيا، ثم سيتي الأول وهو مُشيد البهو الكبير في المعبد يحتوى على ١٣٤ عمودًا فريدًا في التصميم والزخارف، ثم رمسيس الثاني الذي أكمل ممر الأعمدة عقب وفاة والده سيتي الأول، والنقوش تسجل حروبه ضد الحيثيين.. وإلى الجنوب من الكرنك، يوجد حرم مقدس لزوجة آمون "موت" وتماثيل لآلهة القمر والنور المصرية وهي من الجرانيت الأسود، وكلها تحيط بالبحيرة المقدسة"..

ونزلت الكونتيس في "بيت فرنسا" الشهير، والذي ينتصب خلف معبد الأقصر، والذي شيد بناءه الأبيض فوق أنصاف أعمدة وحجارة مغطاة بالنقوش، وقد أهداه محمد على باشا للحكومة الفرنسية "حيث أقام به عدد من علماء المصريات والرحالة، وضباط البحرية الذين شاركوا في حملة الأقصر، خلف البيت حديقة رائعة، أشجار النخيل، أشجار الموز الدفلي وأشجار الليمون والبرتقال، وياسمينة عربية تنشر شذا عطرها" !

وتقوم الكونتيس بجولة في شوارع الأقصر : المقاهي، البازارات، عربات الحنطور.. ثم توجهت إلى مجموعة الكرنك الأثرية، ونزلت في الغرفة الملكية "التى نزل فيها يوما "د. ليبسيوس" عالم المصريات الشهير" ثم توجهت إلى البحيرة المقدسة حيث أخبرها دليلها أن:"الكهنة المصريون كانوا يلقون فيها بالمشغولات الذهبية

والفضية قربانًا للآلهة، وأن بَإمكان المرء أن يرى كل ليلة قارب ذهبي يطفو على مياه البحيرة المقدسة، تقوده نساء فضيات أشبه بالحوريات، تسحبه سمكة زرقاء ضخمة. حاول الكثير من العرب الإمساك به، لكن القارب الفاتن كان يختفي في الدخان فور اقتراب أي إنسان منه" !!

حرصت الكونتيس جولييت على زيارة المعابد : الدير البحري ودير المدينة والقرنة والرمسيوم.. وكتبت : "لقد بدد شامبليون الغموض وأخرج من أعماق ظلمات امتدت آلاف السنين : وجوها جديدة وفراعنة يستقلون عرباتهم الحربية ومواكب متنوعة وأسرى يهودًا وسوريين ونوبيين مقيدين بالأصفاد، وكهنة يرتدون جلود الفهود ويحملون القارب المقدس، وكل طقوس مصر الفرعونية في السلم والحرب، وأضفى على النصوص نبض الحياة وجعلها تنطق من فوق جدران المعابد والسراديب، فتروى لنا ملاحم شعرية تسجل ذكرى انتصار المصريين على الحيثيين في معركة قادش، وأغاني درس الغلال والحصاد، ونقوش الشعائر ونصوص كتاب الموتى".

سردت الكونتيس انطباعاتها بتلقائية وبإحساس مرهف وهي مأخوذة بشواهد المجد القديم وعظمة الفنان المصري القديم واكتشف _على حد تعبيرها_ "موسوعة رائعة من الجمال".. وتودع الرمسيوم ومعبد آمون وأطلال طيبة "التي تبدو بالليل وكأنها مسترخية في التأمل تسترجع ماضيها العريق" !

وتنتقل الكونتيس إلى البر الغربى بنهر النيل، لزيارة "وادي الملوك" حيث مدافن ملوك طيبة، تلال مليئة بالمغارات والكهوف والسراديب، وتزور مقابر : رمسيس الثالث ورمسيس الخامس وتحتمس الثالث وسيتي

الأول وإمنحتب الأول، والذي يرتفع سقف مقبرته الأزرق المحتشد بالنجوم فوق ستة أعمدة "وأمنحتب في خلوته مغمض العينين وجسده نصف عار في بقايا أغطية مهترئة وكأنه يناشدنا أن نتركه في وحدته وادعًا، ونصعد ثانية ونتركه في عزلته ينشد الخلوة والهدوء" !

وأشادت الكونتيس بفنادق أسوان الأنيقة والتي تغص بالسائحين، وفي مقدمتها فندق "كتراكت" الذي يضم خمسمائة غرفة وجناح وحدائق هي جنة الإنسان على الأرض !

ثم تمضي إلى "جزيرة فيله" حيث يبرز على قمتها معبد "إيزيس" وذلك الجوسق الرخامى الفريد- أنس الوجود – وحشد من تماثيل الملوك الجرانيتية وتكتب : "ما أن أطل القمر حتى أخذ ضوءه يكشف شيئًا فشيئًا عن الرهبة التي تسود النقوش الغائرة وتلف الآلهة وتغشى الحروف الهيروغليفية، الجميع يتهامسون بالإشارة.. في عالم من الرهبة والجلال.. ثم تتجلى إيزيس العملاقة المنحوتة على يسار المدخل ورأسها الجميل يعلوه طائر ومن فوقه قرص الشمس.. تنثال هالة الضوء لتكشف عن صدرها وذراعها الذي يرتفع معبرًا عن حركة غامضة، ثم عن خصرها النحيل و ردفيها الملفوفين.. وفي سكون الليل، تتأمل إيزيس في أسى، صورتها وهي منعكسة على صفحة النيل تطول وتطول ثم تتبدد وتنمحي" !

ما أرق ما جرى به قلم الكونتيس "دي روبرسا" من حديث عذب عن شواهد أمجاد أجدادنا، سيظل يثري وجداننا ويزيدنا عشقًا لتاريخ بلادنا..!

مسز كاري
من الأنفوشي إلى الكرنك !

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر – عصر محمد علي باشا – أصبحت مصر بمناخها الدافئ الرائع وعجائب آثارها : موطن جذب للأثرياء والمثقفين – الإنجليز بصفة خاصة – يقضون فيها شهور الشتاء، وربما يكملون الرحلة إلى فلسطين وبلاد الشام، أو بلاد فارس ثم الهند..

ومن بين الطبقة البورجوازية البريطانية، برز عدد من الأقلام النسائية التي سجلت المذكرات و دونت الرسائل الشخصية واليوميات وكن يرسلن بها إلى الصحف والدوريات البريطانية.

كانت الأسكندرية هي ميناء الوصول الرئيسي، يقيم فيها الرحالة والرحالات بضعة أيام وأسابيع، ثم يستقلون المراكب في ترعة المحمودية ثم فرع رشيد إلى ميناء بولاق، وبعد زيارة القاهرة والتجول بين معالمها وشوارعها وأسواقها الشرقية، ثم يصعدون في النيل في سفينة شراعية أو "دهبية" لرؤية آثار حضارة مصر القديمة في بني حسن وتل العمارنة وأبيدوس والأقصر وأسوان..

وكان وصف الأسكندرية في كتابات الرحالة لا يستغرق صفحتين

أو بضع صفحات : المشهد العام لشاطئ الأسكندرية لحظة رسو السفينة، وصف الميناء والفنار، الشوارع، الحي الأوروبي وميدان محمد علي باشا..

كانت زيارة "مسز كاري" البريطانية في شتاء عام ١٨٦٣ بصحبة ابنها وخادمها الخاص، ونشرت رحلتها في العام التالي في لندن بعنوان "رحلة في مصر" تضمن تجربتها خلال أربعة أشهر على متن "دهبية" في النيل.

وسجلت "مسز كاري" انطباعاتها الأولى منذ أن دارت السفينة حول حائل الأمواج، وتأملت قلعة قايتباي و"تجلى لها منظر المدينة، ولولا بعض المآذن والمباني المشيدة على الطراز الإسلامي، لظننا أنفسنا أمام بعض موانئ أوروبا الجنوبية" وأدهشتها تنوع الجنسيات والملامح والأزياء واللغات "بشكل يفوق الوصف" وخلال اجتيازها للشوارع الضيقة في "الحي الغربي" أبدت إعجابها بالمشربيات وملامح الحياة الشرقية، كما رأت يونانيين وإيطاليين وأتراك وأرمن "كلهم يرتدون الطرابيش" ولفت انتباهها كثرة المكارية والسقائين.. وعلى الرغم من اهتمام محمد علي باشا بالمدينة ومظاهر التحديث إلا أنها كتبت: "لن تستعيد هذه المدينة التاريخية مجدها وعظمتها التي كانت عليها في عصور البطالمة والرومان، أيام مكتبتها العظيمة التي كانت مركزًا عالميًّا للعلوم والفنون والآداب"..

وتجولت في ميدان محمد علي (المنشية) وتأملت تمثاله على صهوة جواده، وزارت حدائق "النزهة" وانبهرت بمشهد الممرات الظليلة والأشجار الباسقة وأحواض النباتات والزهور النادرة "بينما فرقة موسيقية عسكرية تعزف أجمل الألحان"!

وسمح لها الثري اليوناني "أنطونيادس" بزيارة قصره وحدائقه الشهيرة وكانت ملاحظتها عن "سخاء المناخ الأفريقي الذي مزج بين الفن والطبيعة والذوق الراقي".. كما حرصت على زيارة "عمود بومبى" والمنطقة الأثرية المحيطة به. في تلك اللحظات انبهرت بمنظر السماء التي ازدانت بألوان رائعة كلها تسبح في نور ذهبي "فمصر خاصة. تتميز بأضوائها وظلالها التي تترك في النفس تأثير السحر"!

وتجولت "مسز كاري" بشارع "فرنسا" في "الحي التركي".. البيوت الحجرية ذات الطابقين تزدان بالمشربيات. وعلى الجانبين تكثر الحوانيت والمقاهي الشرقية وورش للصناعات المحلية خاصة الأرابيسك والمشغولات الذهبية والفضية. مارست مسز كاري متعة التجوال في - قاع المدينة – حتى وصلت إلى سوق السمك "صخب الزحام ونداءات الباعة"..

ثم تخرج إلى شاطئ الأنفوشي: "لوحة حية رائعة للصيادين والبحارة ومراكب الصيد. طيور النورس تنقض على صيدها فوق المراكب وفي زبد البحر.. بينما بعضهم مستغرق في بناء مركب كبير وطلاء أخرى. وأكوام من شباك الصيد بلونها الباهت تهدلت على قوارب مقلوبة على رمال الشاطئ".. وحرصت على زيارة مقابر الأنفوشي الأثرية وسراي رأس التين.

ثم واصلت مسز كاري رحلتها "النهرية" من المحمودية حتى ميناء بولاق. وقامت بجولة سريعة في القاهرة. حيث أعدت نفسها للرحلة الرئيسية صعودًا في النيل في "دهبية".. تبعًا لموضة ذلك الزمان !

توقفت "مسز كاري" لرؤية المزارات الأثرية والتقاط الصور في

سقارة والمنيا وأسيوط وسوهاج حتى وصلت إلى "طيبة" وتسرع في تدوين انطباعاتها مأخوذة بروعة اللحظة وكأنها في حلم أسطوري!.. فكتبت : "فى بداية جولاتي بين المعابد والأطلال.. تذكرت أجيال من الرواد العظام الذين رحلوا بدافع من روح المغامرة وحب الاستطلاع.. تذكرت "دينون وشامبليون وبلزوني ولبسيوس" وغيرهم ممن بعثوا الحياة في حضارة عظيمة ولت، ولم يبق منها سوى شواهد مجدها!.."[1]*

عندما نكون في قلب معابد الكرنك لا بد أن نسرح بخيالنا إلى ثلاثة آلاف سنة مضت.. لنتصور كيف كانت صورة المعابد في ذلك الزمن البعيد.. ونقارن بينها وبين الأطلال الباقية. لنتصور أنفسنا في تلك الأيام أمام المعابد في زمن بهائها ومجدها حينما كان يؤمها الآلاف من الناس. وحينما نمر في طرق المدينة الضيقة بين

١- من بين أهم المراجع العلمية التي تناولت تاريخ و حضارة مصر القديمة وآثارها :

١- أحمد فخري : مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٨١

٢- عبدالحميد زايد : مصر الخالدة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦

٣- رمضان عبده علي : رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة منذ أقدم العصور حتى نهاية عصور الأسرات الوطنية، ٤ أجزاء، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ٢٠٠٧-٢٠٠٨

٤- فرانسوا دوما : حضارة مصر الفرعونية، ترجمة : ماهر جويجاني، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨

٥- جيلان عباس : آثار مصر القديمة في كتابات الرحالة العرب والأجانب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢

٦- Bains : Atlas of Ancient Egypt, Oxford, ١٩٨٤

٧- Vercoutter,J. : L'Egypte Ancienne, Paris, ١٩٦٥

معبد الأقصر ومعابد الكرنك نجد أنفسنا نسير في طريق فسيح عبر مئات من الأمتار وعلى كلا جانبيه صف طويل من تماثيل على هيئة أبي الهول لبعضها رؤوس بشرية ولكن معظمها برؤوس كباش وبنات آوى.

وعندما نصل إلى المدخل الرئيسي نشهد برجين عاليين يرتفعان وبينهما باب مرتفع. وكلما انتقلنا من معبد إلى معبد وجدنا أنفسنا أمام مسلتين عاليتين من الجرانيت المنقوش بالهيروغليفية والمصقول كالمرآة.

كما نجد بجانب المسلات تماثيل ضخمة للملك الذي أمر بتشييد المعبد وهو واقف أو جالس على عرشه لابس تاج مصر المزدوج الأبيض والأحمر.

ونقف أمام الباب المصنوع من خشب الأرز المجلوب من لبنان. ولكننا لا نرى الخشب؛ لأنه مصفح بالفضة ومصور بأجمل الرسوم، ونمر من الباب فنجد أنفسنا في فناء فسيح بين بناء أشبه بالدير تحمل سقفه عمد من الحجر منقوش عليها أعمال فرعون العظيم وعطاياه المقدمة إلى آله المعبد. وفي الوسط مرصع بالعقيق واللازورد والأحجار الكريمة.

ثم نسير إلى قدس الأقداس فلا نرى آثرًا لضوء النهار. ونجد الغرفة صغيرة يضيء ظلمتها مصباح ضئيل يحمله تابع الكاهن الذي يقف إلى جانب الهيكل والغرفة مغلقة الأبواب مصفحة بالذهب وفيها تمثال لإله مزين وبين يديه المأكولات والمشروبات والرياحين ويقوم جيش من الكهنة كل يوم بخدمته ويلبسونه ويزينونه ويقدمون له القرابين وينشدون ترانيم في مدحه والإشادة بمناقبه !

البوابات الضخمة لبهو الأعمدة ترتفع فوق مستوى أشجار النخيل والمشهد العام يبدو كأطلال مدينة عظيمة.. اتخذت طريقي مع مجموعة من السائحين الأوروبيين. على الجانبين بقايا أعمدة تتناثر بين النخيل، ثم اتساع الطريق حتى أصبح كشارع كبير عريض. يحرسه على الجانبين صفان من تماثيل الكباش تغطيها نقوش الأساطير الهيروغليفية. يقودنا إلى بوابة صرح ضخمة. انفتح أمامنا منظور هائل من الأعمدة الهائلة يقود إلى مسلة بعيدة. الجدران العالية الرهيبة ترتفع فوق رؤوسنا.. مدخل البهو الشهير يزدان بنقوش رائعة بارزة.. إلى اليمين تماثيل نُقش على ذراعي وصدر كل منها خرطوش الملك العظيم "رمسيس الثاني".. ووصلنا إلى القاعة الشهيرة التي شيدها الملك "سيتي الأول".. لقد كتب الكثير عن هذه القاعة. لكني أؤكد أن أية كتابات لن تقدم سوى انطباع شاحب عن تأثيرها عظيم , وتثير في النفس الإحساس بالدهشة تدفعني بدورها إلى حالة من الصمت والذهول. فقد أحاول أن أحتفظ بتفاصيل المشهد في ذاكرتي!

نمضي مرة أخرى في بهو الأعمدة.. الملفوفة في ظلال غامرة وحزم عريضة من الضوء. تصطف منقوشة بألوان أبدية بأشكال الآلهة ووجوه الملوك وأسمائهم. وأشكال الحيوانات المقدسة ومذابح تقديم القرابين. ورموز الحكمة والحقيقة.. رؤوسها نحتت على شكل زهرة اللوتس المتفتحة. ومن الصعب أن أتخيل وجود سقف فوقها. فلا يجب أن يفصل شيء بينها والأعماق الزرقاء اللانهائية للسماء.. ولا أدري أين قرأت تلك العبارة القائلة بأن "بهو الأعمدة الكبير في الكرنك

هو أعظم الأعمال المعمارية التي صممت ونفذت بأيدى الإنسان" !.. من صنع الخيال..أكاد أهمس بكلمات الوداع لهذا الحلم الأسطوري !

نخرج من هذه الصروح العملاقة التي تلوذ بالخلود.. إلى عالم الواقع، إلى حياة الناس.. ونمر بقرى "أبو الجود" و "العساسيف" و"نجع دياب".. البيوت تمتد في الأفق مسورة ببساطة تتوسطها أحواش مسقوفة بجذوع النخيل.. سوق للماشية، وآخر للجمال.. وأسواق صغيرة دائمة تفترش جوانب الطرق : الخضر والفاكهة والقلل القناوي والعاديات المقلدة.. على عربات الكارو ما تزال نسوة ببراقعهن يغطين بها شعرهن الأسود يجلسن القرفصاء باتزان بينما بنات باسمات في عمر الزهور يغنين ويصفقن في ثياب صارخة الألوان..

وفجأة ترى "مسز كاري" مشهدًا عجبًا : رجال ونساء وأطفال يتزاحمون في موكب صاخب، مهللين مكبرين، بينما يتدافع إليهم من كل صوب جماعات متحمسة للمشاركة في هذا الموكب.. سألت.. عرفت أنها "الدورة" وتعنى الطواف بالكسوة الخضراء الجديدة لضريح "سيدي أبي الحجاج الأقصري" بمناسبة الاحتفال بذكرى مولده.. وعقب صلاة العصر، شاهدت "المرماح".. الساحة بجوار معبد الأقصر، المقام فوقه مسجد أبي الحجاج، تحتشد بالفرسان الذين أتوا من كل القرى والنجوع، خيولهم قوية، جميلة، ذات سروج مزركشة– لعل بعض هذه الخيول ينتسب إلى سلالات خيول نجد الأصيلة – وبدأ المشهد بلعبة "التحطيب" التي يجيدها ويعشقها أهل صعيد مصر، وكم كان رائعًا : رقص الخيول على وقع المزمار والربابة، واستعرض كل فارس مهارته في الفروسية والرمح بالحصان..

في عصر اليوم التالي، احتشد الناس حول زورق مذهب على شكل قارب فرعوني "حملوه على المناكب في موكب مهيب بين معبدي الأقصر والكرنك وطريق الكباش، بينما تتوجه أنظار الجميع إلى البر الغربي حيث مدينة الموتى.." ويطوف بذاكرتها ما يؤكد "الجذور الفرعونية" لهذا الاحتفال، فكتبت : "هذا المشهد ذكرني على الفور بما رأيته من رسوم نُقشت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة على جدران معبد الأقصر المطل على النيل. من خلال النقوش على الجدار رحنا نتتبع المراحل التفصيلية لإحتفالات "أوبت" الدينية. تبين النقوش أنه حين كان أبناء طيبة يحتفلون بعيد آمون خلال الشهر الثاني من فصل الفيضان وبعد انتهاء موسم الحصاد وجني الكروم، كان تمثال الإله آمون يخرج من معبد الكرنك في زيارة خاصة لزيارة "حريمه" في معبد الأقصر.. موطن حياته الزوجية الخاصة، حيث يقضي أحد عشر يومًا مخصصة لخروجه الإلهي في عيد "أوبت" الكبير.. ويتجلى على طول الطريق لأتباعه المؤمنين به المتحمسين له... وكان الكهنة يحملون على مناكبهم محراب آمون في زورقه القدسي الفخم المتوهج ببريق الذهب.. ويسيرون به – ومن خلفه زورقا زوجته "موت" وابنه "خونسو" – في موكب مهيب يتقدمه حملة البيارق واللافتات والأبواق لإفساح الطريق لموكب الإله فيستقبله الناس بالحمد والتهليل والدعاء.. وحين يبلغ مطلع الموكب مرفأ النهر – وهو ما زال قائمًا حتى الآن – يُرفع محراب آمون فوق زورقه ليتهادى على مياه النيل.. ويسير الزورق من الشمال إلى الجنوب ضد التيار حيث يجدف رجال عراة الصدور في زوارق السحب بكل قواهم يساعدهم

رجال آخرون يشاركون في السحب بالحبال من جانب النهر.. بينهما قارعو الطبول والضاربات على الصنوج يصاحبون بحركاتهم موكب الزوارق المقدسة التي تصحبها سفينة الملك وسفن أخرى مكدسة بكل أنواع الهدايا والقرابين من مباخر فاخرة، و آنية بديعة، وصناديق وأدوات للزينة، وعطور وبخور يحملها خدم عديدون. وعلى الشاطئ يخر الناس احترامًا كلما مر بهم الموكب في سفنه المقدسة تتهادى على صفحة المياه. فإذا وصل معبد الأقصر نُحرت الذبائح وقُدمت القرابين وتقاطر الناس أفواجًا للاشتراك في هذا العيد العظيم. فإذا ما رست السفن على رصيف معبد الأقصر، حمل الكهنة حملهم المقدس على الأعناق مرة أخرى، ودخلوا المعبد بين الدعوات والأهازيج حتى يصلوا إلى المقاصير المقدسة، حيث تودع تماثيل الألهة الثلاثة في أماكنها من قدس الأقداس.. لقد استمرت الأقصر تشهد ذلك الموكب الديني لمئات السنين. وحين دخل المصريون في دين الإسلام استمر أهل المدينة المحدثون يمارسون في احتفالهم بمولد سيدي أبي الحجاج ما كان أجدادهم القدامى يفعلونه نفسه، ولكن بعد أن أضافوا إلى موكب الولي المسلم سفينة آمون المقدسة، وكانوا وهم يفعلون ذلك يدركون أنهم إنما يحافظون على تقاليدهم ويتمسكون بتراثهم.

وكانت "مسز كاري" شديدة الحرص على زيارة "البر الغربي" أو "جبانة طيبة" حيث مقابر الملوك والملكات، ومقابر الأشراف و "حيث يعيش الأحياء على تراث الموتى من الأجداد" !.. وتحاول "مسز كاري" تعطير الواقع بشذى الخيال وبشذرات من الماضي، فكتبت : "تروي ذاكرة التاريخ.. أن "مدينة الأحياء" كانت تمتد بطول البر الغربى..

حيث القصور وصروح المعابد ودور الحكومة وبيوت الأمراء والموظفين تبدو رائعة غاية في الجمال، أرضها مزدانة برسوم أزهار اللوتس، وجدرانها مزخرفة برسوم ملونة لأسراب الطيور، وكانت أروقة القصور والبنايات واسعة عامرة بكل ما هو فاتن ورائع وجميل...

ولكن ديار هؤلاء البشر كلها كانت منشأة من اللبن الهش.. لأن المصري القديم لم يكن يهتم ببقاء مبانيه السكنية بقدر اهتمامه بمعابد الآلهة ومقابر الموتى.. لهذا فإن مباني المدينة لم تستطع أن تواجه مرور الأزمان فتبددت وذهبت أدراج الرياح.. بينما كانت المعابد وديار الآلهة مقامة من الحجر فبقيت شاهدًا على عظمة المصريين القدماء على مدى التاريخ!

مدام أولمب إدوارد
وسحر مصر في عهد إسماعيل باشا

كانت النزعة الرومانسية التي انتعشت خلال القرن التاسع عشر، تدفع ليس فقط الرحالة والفنانين والمستشرقين الأوروبيين لزيارة مصر، بل نوعيات أخرى شملت ضباط ومهندسين في الجيش البريطاني بالهند قضوا إجازاتهم في مصر، ورجال بحرية متقاعدين ونبلاء ومغامرين وشباب أثرياء ودبلوماسيين وأعضاء برلمان وصحفيين.. خاصة أن النظرة إلى آثار مصر وعجائب عالمها القديم قد تغيرت خلال ذلك القرن، فروح البحث العلمى كشفت الكثير من تاريخ وأسرار مصر القديمة، فأصبحت آثارها شاهدًا على حضارة عظيمة كاملة ومجد عريق اندثر.. لم يكن هؤلاء خبراء آثار بل كانوا - حجاجًا- يحجون إلى مصر مما أكسب رحلاتهم مذاقًا فريدًا، وسحر مصر وجاذبيتها يتدفقان كنهر النيل خلال واديها الأخضر ورمالها الصامتة كفكرة جبارة رصينة تجوس خلال حلم.. وسحر مصر اجتذب أيضًا سيدات أرستقراطيات وأديبات وصحفيات..

كانت منهن مدام "أولمب إدوارد" الكاتبة والأديبة الفرنسية، نشرت أولي رواياتها عام ١٨٦١ ثم أسست صحيفة "بابيون".. تركز

اهتمامها على دراسة تاريخ مصر الحديثة ورصد أحوالها السياسية والاجتماعية. استغرقت زيارتها للقاهرة خمسة عشر شهرًا في غضون عامي ٦٤ - ١٨٦٥ وعقب عودتها نشرت كل ما سمعته وتقصت عنه في مصر. واختلطت في رواياتها الحقائق بالخيال والحكايات المبالغ فيها عن الأسرة العلوية !

كتبت مدام "أولمب" عن محمد علي باشا "أن حقيقته تختلف كثيرًا عن الصورة التي شاعت عنه في أوروبا [(١)]*". فقد عرف كيف يستميل الصحافة الفرنسية لخدمة أهدافه بمجاملاته المحسوبة. فما من زائر فرنسي ذو مكانة يصل إلى مصر حتى يحاط بالرعاية والتكريم. وبتوجيه من الباشا تعد له رحلة متميزة إلى أعالى مصر. مستقلًّا دهبية فاخرة وينعم بأشهى الأطعمة. ويمتطي الجمال والبغال. ويحف به القواسون ويعامل معاملة الأمراء فتطلق له المدافع.. إن الباشا

١- الشخصية الخالدة التي أظهرها محمد علي باشا على مسرح التاريخ. كان لها أثر عظيم في تكوين دولة ومولد أمة. وإلى جانب النهوض بمصر وتحديثها. امتدت طموحاته في إمبراطورية عظيمة و اتسعت فتوحاته. فضم إليها بلاد الشام وجزيرة العرب والسودان واليونان وجزر كريت وشمال ليبيا. وكانت جيوشه المصرية بقيادة إبنه الفاتح العظيم "إبراهيم باشا" على مسافة خمسين ميلًا من إسطنبول فهدد عرش السلطنة العثمانية. عندئذ اجتمعت الدول الأوروبية على تحجيم طموحات محمد علي باشا. وعلى الرغم من أنه كان صديقًا لفرنسا. إلا أنه لم يكن عميلًا. فقد كان رجل دولة من الطراز الأول تمتع ببصيرة وخيال. وهو الذي كان يؤكد دائمًا أن "أمن مصر يبدأ من جبال سوريا". وعن تاريخ العلاقة الدبلوماسية للباشا بأوروبا وكفاحه ضدها انظر كتاب "محمد علي و أوروبا" رينيه قطاوي. جورج قطاوي. ترجمة عن الفرنسية د. ألفريد يلوز. إصدارات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية. القاهرة. ١٩٥٢. وقد اعتمد المؤلفان على محفوظات القنصليات العامة الأوروبية. ومحفوظات وزارة الخارجية الفرنسية. وسجلات قصر عابدين ووثائق الجمعية الجغرافية الملكية المصرية.

يتمتع بذكاء خارق، ويخفي وراء دماثته دبلوماسية بارعة، فهو يتمتع بين الأوروبيين بصفة الحاكم الإنسانى المتحرر، على حين يبدو أمام رعاياه المسلمين بقناع المسلم الورع المتمسك بقواعد الدين، المحافظ على التقاليد"!

واجه محمد علي باشا - حملة إعلامية - أوروبية عندما أراد أن يجعل من مصر دولة قوية مستقلة، ويبدو أن مدام أولمب قد تأثرت بالانتقادات الصحفية للباشا، ونجحت المؤامرات السياسية والاقتصادية مع المدافع في تدمير - الخطر الجديد - طموحات الباشا، فانكمشت إمبراطوريته تحت الضغوط الأوروبية، وانزوى الباشا العظيم مؤسس مصر الحديثة حتى لقي ربه عام ١٨٤٩ وخلفه حفيده – عباس باشا – بن طوسون.

أشارت مدام أولمب إلى أن فترة حكم عباس حلمي الأول كانت ردة قصيرة عن سياسة تحديث الدولة التي كانت هدفًا ومنهجًا لجده محمد علي باشا، فسرح أعدادًا كبيرة من الجيش الذي أسسه محمد علي وتحققت به الانتصارات والفتوحات مما أسهم في دعم إمبراطورية مصرية قوية، وأغلق المدارس والمصانع.. وقد رسخ في عقيدته أن قيادة شعب جاهل أيسر من قيادة شعب متعلم !.. "كان عباس مزيجًا من الجهل والتعصب، كثير التقلب متخلفًا رجعيًا يمقت أنماط المدينة الأوروبية" !

وأضافت "أولمب": "أن "عباس" عاش في عزلة تامة عن شعبه، مفضلًا الإقامة في قصور حصينة، بعيدة عن الأنظار في صحراء العباسية، وفي بنها، وبطريق السويس، وحوله عدد من العبيد،

ومجموعة من الوحوش الضارية التي كان حريصًا على اقتنائها وترويضها "..

وقالت أولمب عن عباس باشا أنه كان أشهر مرب وخبير للخيول العربية الأصيلة في العالم. وقد شيد قصره " الدار البيضاء" عام ١٨٥٠ بطريق السويس وحوله إلى مزرعة لتربية كرام الخيل و أحاطه بحراسة مشددة. وكان يملك في إسطبلاته اكثر من ألف فرس وفحل من السلالات الأصلية: الصقلاوي، كحيلان العجوز، هدبان، عبيان، الحمداني...

وأشارت إلى أنه منح البريطانيين امتياز إنشاء خط سكة حديدية بين القاهرة والأسكندرية، وشجع "صامويل شبرد"على إقامة فندق غدت شهرته موازية لشهرة الأهرام !

وبلغ من محاربة عباس باشا لأفراد أسرته واتهامه لهم بالتآمر على حياته، أن فرت عمته الأميرة نازلي هانم فاضل [٢]* إلى الآستانة، بينما لزم عمه سعيد باشا سراي القباري بالأسكندرية.. وقد اتفقت الروايات التاريخية على أن عباش باشا لقي مصرعه في سراي بنها،

٢- الأميرة نازلي هانم ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل. صاحبة أشهر صالونات القاهرة الثقافية. وكان مقره سراي الحلمية بدرب الجماميز. أجادت نازلي هانم اللغات الفرنسية والتركية وكانت تتحدث الفرنسية كإحدى بنات " السين " ذوات الثقافة الرفيعة. لكنها كانت تفضل الحديث بالإنجليزية. وعرفت بعض من العربية. تركت الأميرة " المتمردة " أثراً كبيراً في الحياة الفكرية بمصر في مطلع القرن الماضي. في صالونها تشكلت وزارات وخرجت الأفكار والمبادرات. وأمسكت بخيوط اللعبة السياسية. ولجأ إليها جميع الأطراف.حيث كانت على علاقات وثيقة بالإنجليز. كما ارتبطت بصداقة السلطان عبد الحميد الذي كثيرا ما التقى بها في قصره. تزوجت وهي صغيرة بالسفير العثماني في لندن. كما كانت صديقة شخصية للملكة " فيكتوريا " والملك " إدوارد ".

وفي رواية مدام أولمب – المعتمدة في المراجع التاريخية - والتي ذكرتها في كتابها "كشف الستار عن أسرار مصر" تحدثت عن مساعي الأميرة نازلي هانم حيث أنقذت من الآستانة مملوكين من ماليكها وكانا على جانب كبير من الجمال بحيث يغريان وكيل الباشا على شرائهما. وبالفعل هبطا مصر ونزلا إلى سوق الرقيق ورآهما الوكيل فابتاعهما وأحضرهما إلى قصر مولاه في بنها. وأعجب بهما عباس باشا وعهد إليهما بحراسته ليلًا. وقد لبث المملوكان يستجمعان قوتهما إلى أن جاء دورهما في نوبة الحراسة فاقتحما جناحه وقاما بخنقه وهو نائم حتى فارق الحياة. ثم نزلا إلى الإسطبلات وطلبا جوادين لقضاء حاجه لمولاهما ولم يشكَّ السائس في الأمر. فركبا الجوادين وفرَّا إلى القاهرة ومنها إلى الأستانة. حيث نفحتهما الأميرة نازلي هانم بمكافأة سخية على نجاح مؤامرتها !

وكتبت أولمب عن "سعيد باشا" أنه كان عصريًا بعكس سلفه. وثقافته الفرنسية أسهمت في تمدين مصر على النمط الأوروبي.. كما كان عملاقًا تزينه لحية ضخمة. محبًا لمظاهر الترف والبذخ. يميل إلى المرح والفكاهة شرهًا في تناول أفخر الأطعمة. وأبرز صفاته: الاستقامة والصراحة والشجاعة...والمكر !

أما الخديو إسماعيل باشا والذي كان عصره: أكثر عصورنا التاريخية ثراء وحركة شاملة في جميع المجالات. فقد آثر – الإصلاح القوي العنيف – من أجل الأخذ بأسباب الارتقاء الحضاري في العمران والزراعة والتعليم والتجارة والصناعة والقضاء والنظم السياسية والإدارية.. وكان في كل ذلك : الروح الملهمة واليد المحركة. في عصر

زاخر بالإنشاء والتجديد والبناء والتشييد، وقد يختلف المؤرخون والرحالة في إسماعيل باشا، لكنهم يتفقون على عظمة شخصيته التي لم تعرف المستحيل.

كانت زيارة مدام "أولب" لمصر في عهد إسماعيل باشا، ولمست بنفسها حرص إسماعيل باشا على تبني الأفكار الأوروبية وعزمه على تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا، وكتبت : "إسماعيل باشا ينفق ببذخ شديد على مظاهر الدولة العصرية، من تطوير للموانئ و مد خطوط السكك الحديدية وإنشاء مكاتب للبريد ومدارس للبنات وفنادق للأوروبيين، وهو مولع بالبناء والتشييد، فشرع في إقامة عدة قصور في القاهرة: عابدين وقصر النيل والقصر العالي وسراي الإسماعيلية والزعفران والقبة، وعلى ضفاف النيل بجزيرة الروضة والزمالك وشبرا، وكذلك بالأسكندرية والمنصورة والمنيا، واحتشدت جميعها بكل مظاهر الإبهار والفخامة، إلا أن بعضها كان في حاجة إلى الذوق المعمارى، وتأثيثها الداخلي لا يرقى كثيرًا عن مظهرها الخارجي"!

وأشارت "أولب" إلى أن مخصصات "إسماعيل باشا" فاقت مخصصات "فيكتوريا" ملكة إنجلترا..!.. وانتقدت الإهمال التام للقاهرة المملوكية "التي تجثم ألوان الصحراء على مآذنها وقبابها وبيوتها.." غير أنها أشادت بإسماعيل باعتباره "أول حاكم منذ تسعة قرون يرتبط بمشروع شامل لتحديث القاهرة ومنحها وجهًا عصريًا، وحقيقة الأمر أن القاهرة الحديثة ذات الطابع الأوروبي: كانت تجسيدًا لرغبته العارمة في أن يشهد الغرب عاصمة أوروبية تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل وتمتد من الأسكندرية إلى الخرطوم"!

لويز كوليه
وبلاد الشمس الساطعة

الرحالات الأوروبيات لسن سيدات عاديات أتين إلى مصر مع أزواجهن وأصدقائهن لمجرد التمتع برحلة نيلية ومشاهدة آثار الفراعنة التي بهرت أوروبا خلال القرن التاسع عشر.. الذي شهد لوردات بريطانيا وأسرهم يستأجرون " الدهبيات " ويبحرون بها إلى أسوان والشلال الأول.

الرحالات الأوروبيات كن من طراز آخر، فهن ثائرات على الأوضاع السائدة في مجتمعاتهن ومثلن روح التجديد الذي اجتاح المجتمعات الأوروبية خاصة عقب الثورة الصناعية وتطوراتها..

ومدام "لويز كوليه" كانت من هذا الطراز: سيدة باريسية أرستقراطية اشتهر صالونها الأدبي في العاصمة الفرنسية، الذي اجتذب العلماء والأدباء ونخبة المجتمع، وكانت تناقش فيه القضايا السياسية والاجتماعية والاتجاهات الأدبية الحديثة، انفصلت عن زوجها الموسيقار "ايبوليت كوليه"، وتوجهت إلى الكتابة في الصحف.. إلى أن جاءتها الفرصة لزيارة مصر عام ١٨٦٩م كمراسلة مجلة " ديبا " لتغطية وقائع احتفالات افتتاح قناة السويس، في

البلد الذي عاشت فيه بخيالها من خلال قراءاتها لكتابات أصدقائها من الأدباء والرحالة والفنانين الفرنسين، وانتهزت الفرصة فقامت بجولة في القاهرة وبعض المدن المصرية، ونُشر كتابها في باريس عام ١٨٧٩م بعنوان " بلاد الشمس الساطعة "!

كان الأديب والرحالة الفرنسي "جوستاف فلوبير" وصديقه "ماكسيم دوكان" (١)* ممن يترددون على صالون مدام " لويز كوليه" وتعرفا على عدد من المفكرين المعاصرين وشخصيات رومانسية منهم : الشاعر الرجيم بودلير والمثال براديه والشاعر لوى مارى دى كورمنان والرحالة جيرار دى نيرفال والرحالة تيوفيل جوتييه، وانعقدت أواصر الصداقة بينهم جميعًا، وقد زادتهم ثقافتهم ومطالعاتهم الغزيرة شغفًا بالشرق ورؤاه و أحلامه وسحره الغامض !

وقبيل رحيله إلى مصر عام ١٨٤٩م، أصبح فلوبير عاشقًا لمدام كوليه، لجمالها الرائع وثقافتها واهتمامها بالأدب، على الرغم من أنها كانت تكبره بإحدى عشر سنة.. وكتب لها رسائل من مصر

١- كان فلوبير من أهم أدباء فرنسا في ذلك العصر، أجاد اللاتينية واليونانية مما أتاح له التعمق في دراسة الشرق وأديانه وتاريخه وفلسفاته وآدابه وتأثر بقصص ألف ليلة وليلة، بدأ رحلته هو وصديقه ماكسيم دوكان إلى مصر في خريف عام ١٨٤٩م، كان فلوبير مبعوثًا رسميًا من وزارة الزراعة والتجارة الفرنسية، وماكسيم موفدًا رسميًا من وزارة التعليم الفرنسية، استقبل الأديبان بكل الحفاوة في الأوساط المصرية، وشملهما سليمان باشا الفرنساوى برعايته وزودهما بالتوصيات اللازمة إلى الولاة وكشاف المديريات، وكان التصوير الفوتوغرافي مجالًا جديدًا استأثر باهتمام دوكان، وذاعت شهرة رسائل فلوبير التي جمعت في كتاب بعنوان "رحلة إلى الشرق" وحظي بالشهرة في الأوساط العلمية كتاب دوكان "النيل، مصر والنوبة" Du Camps, M.: Le Nil, Egypte et Nubie, Paris, ١٨٥٤

تفيض بالحب والبلاغة الأدبية والصراحة الجنسية لم تتح قراءتها إلا بعد أن باعتها ابنتها لأحد الناشرين !

كانت لويز كوليه قد قرأت مذكرات فلوبير في مصر، كما قرأت قصيدة نظمها "لوى بوايه" عن الغانية "كوتشوك هانم" استوحاها من رسالة فلوبير إليه. فكتبت بدورها غاضبة إلى فلوبير معربة عن غيرتها من الغانية المصرية، وأجابها فلوبير : "لقد ألهمتني يا ربة الفن، بما خلفته مذكرات رحلتي في نفسك، بتأملات عجيبة تفصح عما يجيش في قلب الرجل والمرأة.. أما عن مدام كوتشوك فليهدأ بالك ولتصوبي آراءك عن الشرق، فإني واثق أن العاطفة لم تجد سبيلها إلى قلبها، فالمرأة الشرقية خالية القلب، ولا هَمّ لها إلا نرجيلة تدخنها وحمام تختلف إليه وكحل تكتحل به وقهوة تحتسيها.."!

قبيل افتتاح قناة السويس بخمسة شهور، كتب "ماريت" إلى شقيقه إدوارد: "تخيل أنني كتبت أوبرا.. أوبرا ضخمة سيقوم "فيردى" بوضع موسيقاها، خصص لها الخديو مليون فرنك" !.. لقد قام مدير الآثار المصرية بكتابة القصة والسيناريو، وصمم إسكتشات الملابس والديكور.. ولكن لم يتم عرض أوبرا "عايدة" في الافتتاح الذي تم في الأول من نوفمبر عام ١٨٦٩م، وشهدت "لويز كوليه" مع ضيوف إسماعيل باشا أوبرا أخرى هي "ريجوليتو" من ألحان الموسيقار "فيردى"، وكان لافتًا للنظر اختيار "ماريت" لاسم "عايدة" وهو اسم له رنين عربي "فى أحداث تدور على ضفاف النيل في زمن سطوة ومجد الفراعنة" !

كما شهدت مدام كوليه لحظات تاريخية أبان الاحتفالات الأسطورية لافتتاح قناة السويس.. كان قد تحدد يوم السابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩م للاحتفال العالمي، وكتبت أنها كانت بالقرب من " فردينان ديلسبس " وهو يعطي الإشارة بدخول مياه البحر الأحمر إلى البحيرات المرة في يوم الخامس عشر من أكتوبر وقال بحماسه المعهود: " منذ خمسة وثلاثين قرنا انحسرت مياه البحر الأحمر بأمر من موسى، واليوم تعود هذه المياه إلى مجراها بأمر من عاهل مصر "!

وكتبت "لويز كوليه": أن الخديوى إسماعيل كان راغبًا في جعل الاحتفالات عملية دعائية كبرى لمصر ولتدعيم مركزه كعاهل كامل الاختصاصات. كتب إلى جميع ملوك وأمراء أوروبا يدعوهم إلى زيارة مصر و حضور هذا الحدث العظيم. لم يحضر سوى الإمبراطورة "أوجينى". و"فرانسوا جوزيف" إمبراطور النمسا. وولي عهد بروسيا وأمير وأميرة هولندا وأميرها "نوفر" وبعض الشخصيات من المستوى الثاني، وإلى جانب سفراء وممثلي الدول الكبرى حضر تسعمائة مدعو من العلماء والفنانين والكتاب والصحفيين.

وأشارت كوليه إلى أن الوفد الفرنسي كان " الأكثر عددًا والأكثر تألقًا " ٢٧٥ مدعوًا. المؤسسات العلمية الفرنسية الكبرى، والجيش والهيئة القضائية وكلية سان مير العسكرية ونادي الفروسية كانوا ممثلين في هذا الوفد. بالإضافة إلى اثنتي عشرة صحيفة ومجلة فرنسية.. وقد طلب إسماعيل باشا من " ماريت " أن يقوم بدور المرشد لمائة وعشرين مدعوًا منحوا حق زيارة آثار مصر في الأقصر وأسوان قبل افتتاح القناة. وأعد "ماريت" كتيبًا شمل أهم معالم الحضارة الفرعونية وسماتها.

وكتبت "كوليه": أن الإمبراطورة " أوجينى " وحاشيتها الكبيرة على متن الباخرة الملكية " ايجل " وصلت إلى الأسكندرية يوم ٢٣ أكتوبر ١٨٦٩ وقد أعدت الجالية الفرنسية بالأسكندرية استقبالًا يليق بجلالتها، واستقل "ديلسبس" والقنصل العام الفرنسي زورقا لاستقبال باخرتها.. في الساعة الحادية عشرة استقلت الإمبراطورة القطار الخديوي بصحبة إسماعيل باشا إلى القاهرة.. كان واضحًا أن الخديوي كان مغرمًا بأوجينى " فلم يهمل شيئا يمكن أن يسحرها"!

شيد من أجلها سراي الجزيرة بطرازها الأندلسي وكوبري الجزيرة "قصر النيل "، ومهد طريق الأهرامات وأسس مدرسة لتعليم البنات، وحقق لها رغبتها في حضور عرس مصري، وشهدت بالفعل زواج شاب من موظفي القصر.. وكانت صالونات القاهرة تتداول قصة غريبة: " هل تعرف لماذا يوجد بشارع الأهرامات انعطافًا شديدًا في مكان معين؟ ذلك لأن إسماعيل باشا الذي سيجلس بجانب الإمبراطورة يتمنى رؤيتها وهي تتأرجح بين ذراعيه "!

فى سراي الجزيرة، كان عالم المصريات "ماريت" يلقي محاضرات عن الحضارة الفرعونية على الإمبراطورة والسيدات من حاشيتها قبل سفرهن إلى صعيد مصر، ورافق الخديو جلالتها حتى أسيوط ثم تولى الأمير (السلطان فيما بعد) حسين كامل مهمة رعاية الإمبراطورة خلال رحلتها.

وتواصل كوليه تدوين مشاهداتها " في السادس عشر من نوفمبر كانت ثمانون سفينة من مختلف الجنسيات في ميناء بورسعيد، واستقبلت " الايجل " استقبالًا حافلًا وسط طلقات المدفعية،

كانت الإمبراطورة تدرك أنها نجمة هذه الاحتفالات التاريخية. أرسلت برقية إلى زوجها نابليون الثالث: استقبال حار. لم أر في حياتي مثل ذلك .. وكتبت عن حفل ديني إسلامي - مسيحي غير مسبوق في " الشرق": أقيم بعد الظهر على - رصيف أوجينى - وأشارت إلى أن علماء الدين الإسلامي أدوا شعائرهم بشكل متزن. بينما مرشد قصر التويلرى مسيو بوير وكان يرتدي رداءً أرجوانيًّا ألقى موعظة طويلة ومملة !

حيا إسماعيل باشا الإمبراطورة: "روحك الشجاعة تفعل أعظم الأشياء في صمت ".. وأشاد بدور فرنسا في إنجاز أعظم مشروعات القرن. أشارت كوليه إلى آلاف الأعلام والرايات الملونة التي ترفرف في بهجة تحت السماء المشرقة. والصليب ينتصب بجوار الهلال وسط احترام الجميع. وحضور مهيب وجامع في مهرجان عظيم للجنس البشري !

فى صباح يوم السابع عشر من نوفمبر. دخل قناة السويس أسطول مكون من أربعين سفينة. تتقدمه سفينة الإمبراطورة ثم سفينة إمبراطور النمسا. احتشد أهالي الإسماعيلية فوق منازلهم والأماكن العالية لمشاهدة الموكب البحري. حتى لاح خلف التلال الرملية صاري "الايجل". تتقدم في بطء حتى دخلت حوض السفن. عندها " أطلقت جميع بطاريات المدفعية والجماهير الغفيرة تصفق. إنه حقا شيء رائع. الإمبراطورة تقف في مؤخرة باخرتها تلوح بمنديلها وبجوارها "دي ليسبس".. طارت القبعات في الهواء. أمراء ووزراء ومهندسون يتبادلون العناق والتهنئة. ودموع

الفرحة في عيون أكثرهم. لقد تم عبور نصف القناة خلال ثماني ساعات ونصف الساعة "!

وبدأت الأفراح، وإلى جانب ضيوف الخديو، فقد دعا أيضًا جميع موظفي شركة قناة السويس وعشائر البدو في المنطقة: "في المساء الأضواء والزينات في كل مكان، الألعاب النارية أمام مقر الخديوي، خيام كبيرة صفت بها موائد مفتوحة لاستقبال خمسمائة شخص، وأخرى تسع ثلاثمائة شخص، أكثر من ثمانية آلاف أتوا من الصحراء.. أطعمة فاخرة، ونبيذ فاخر.. لحوم ضأن وطيور وأسماك وبط بري.. مزيج من البذخ الشديد والفخامة غير المألوفة "!

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من اليوم العشرين من نوفمبر كتبت "كوليه": "دخلت السفينة "ايجل" البحر الأحمر وتغيرت خريطة العالم " لم تجد كلمات تصف بها حماس وفرحة الجميع بهذة اللحظة العظيمة في تاريخ الإنسانية !

الصحراء المصرية التي أحبت ليدى آن بلنت!

كانت الليدى "آن بلنت" الأرستقراطية البريطانية: أول امرأة بريطانية تغامر باقتحام صحراء "النفود" الرهيبة في نهاية القرن التاسع عشر، خلال رحلتها الشهيرة من "دمشق" إلى "حائل" شهدت عبر وقائعها مخاطر وأهوال، لكنها عندما دخلت قلب جزيرة العرب، فقد دخلت التاريخ من أرحب أبوابه، كما كانت من أولى رائدات الرحالات اللائي زرن الشرق العربي.

لقد جمع الترحال بين أديبين يعشقان الحرية، كما جمعتهما هواية الدراسات الشرقية، وكتابها الشهير "الحج إلى نجد – مهد العرق العربي" [(1)]*هو لوحة أدبية رائعة ترتقي عن جميع ما كُتب في أدب الرحلة من حيث رقة المشاعر وجمال الأسلوب والإثارة ودقة التصوير، في براعة تجعلنا نعايش الأحداث لحظة بلحظة، على الرغم من تباعد الزمان.. كما يدل على قدرتها على فهم طبائع التفكير والسلوك الاجتماعي لحياة البدو، فأضحت رحلتها ملحمة خالدة ومغامرة فريدة!

١- A Pilgrimage to Nejd – The cradle of the Arab Race. ترجم إلى العربية بعنوان: "رحلة إلى نجد – مهد العشائر العربية" أحمد أيبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥

في التاسع عشر من نوفمبر عام ١٨٨٠. ومن فندق "النيل" [٢]* بالقاهرة، والذي كان مقامًا للكثير من الرحالة الأوروبيين في ذلك العصر، كتبت "آن بلنت" إلى ناشر كتابها أن يرسل إليها نسخة من الكتاب فور طبعه عن طريق القنصل البريطاني العام بالقاهرة..

في الخامس عشر من مارس عام ١٨٨١، قامت آن برحلة إلى دمشق، حيث التقت أصدقاءها "جين دجبى" *[٣]* والشيخ عبدالقادر الجزائري وعدد من شيوخ القبائل، وصحبتها دجبى في زياراتها لمراعي الجياد السورية – وكانت قد أهدتها نسخة من كتابها "الحج إلى نجد".. وبلغ مجموع مشترياتها من الجياد الأصيلة سبعةً وعشرين جوادًا، وازدحمت يوميات مذكراتها بملاحظاتها عن السلالات وسماتها

٢- فندق "النيل" أحد الفنادق الشهيرة بالقاهرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شيد بحي الأزبكية على الطراز الإسلامي، وكان مقر إقامة الكثير من الرحالة الأجانب وأشاروا إليه في كتاباتهم، ومنهم : جيرار دي نيرفال وماكسيم دوكان وروبرت هاى و تيوفيل جوتييه...

٣- جين دجبى (١٨٠٧-١٨٨١) ابنة أميرال البحر سير هنري دجبى، من عائلة بريطانية أرستقراطية، أجادت تسع لغات منها اللغة العربية، وبرعت في الرسم والنحت، واشتهرت كرحالة وعالمة آثار وأديبة، كانت حياتها الاجتماعية متقلبة حتى التقت آخر أزواجها الشيخ "مجول المصرب" حيث عُقد قرانهما في بادية حمص وزُفت إليه في مراسم عرس بدوي بين الأهازيج وألعاب الفرسان العرب، عاشت خمسة عشر عامًا ترتدي زي البدو وتنظف خيمة الشعر وتمشي حافية وتحلب النوق وتداوي المرضى وتخدم زوجها بكل الطاعة والحب، بقدر عنايتها بخيوله وهي سليلة الأرستقراطية والصالونات البريطانية، ثم شيد لها الشيخ مجول دارًا فخمة في دمشق (حي مسجد الأقصاب) تحيط بها حديقة رائعة وأطلق عليها الدمشقيون "السنيورة" وكان أشهر أصدقائها الأمير عبدالقادر الجزائري والأديب الفرنسي بلزاك، وفي بيتها كان يجتمع القناصل وشيوخ القبائل والأمراء وضيوف دمشق، في عام ١٨٨١ أصيبت بمرض الكوليرا وفارقت الحياة وبكا الشيخ مجول رفيقة العمر التي عاشت معه ثلاثين عامًا حياة حافلة ودفنت في مقبرة البروتستانت بدمشق.

البدنية ورسوم تفصيلية.. وقامت فيما بعد بشحن عدد من هذه الجياد: رشام، فلاى، دافيد، مهر، مشهورة، رودانيا، كبيشة، ومناغية التي تشبه "شريفة" فرستها المفضلة.. إلى الإسطبل "المعرض" الخاص بها في "كرابيت" بلندن.

في الثلاثين من نوفمبر عام ١٨٨١، وصلت برفقة ويلفريد إلى فندق "النيل" في أجواء سياسية مشحونة بالداخل وضغوط بريطانية وفرنسية.. في الرابع عشر من ديسمبر ذهبت مع ويلفريد للقاء أحمد عرابي "ضابط مصري ابن فلاح، خريج الأزهر، يتعاطف مع الطبقات الفقيرة.. وسرعان ما أصبح بطل الشعب".. وبدأت آن العمل بصورة فعالة مع زوجها لصالح عرابي والقضية الوطنية المصرية..

وبرزت اهتمامات آن بلنت في التنقل الدائم إلى ومن الصحراء خلف الشاطئ الشرقي للنيل، والعودة إلى القاهرة للاهتمام بالجياد والاطلاع على الأحداث السياسية، وأصبحت يوميات مذكراتها خليطًا من معلومات عن الجياد "التي شغفتها حبًا " والتخمينات الدبلوماسية، كما كانت تتردد على الكنيسة في الصباح، وتزور الإسطبلات، وتذهب إلى الاجتماعات، وتكتب تقارير ورسائل إلى الصحف البريطانية..

وحرصت آن بلنت على زيارة إسطبلات "علي باشا شريف" وكتبت: "تركي ممتع كسول، فرنسي الثقافة، هوايته الوحيدة البلياردو".. وكانت قد شاهدت خيوله من قبل "يبدو أنه باع عددًا كبيرًا منها وأهدى بعضها الآخر" فأصيبت بخيبة أمل !..

في السادس من يناير عام ١٨٨٢ كان الزوجان بلنت يخيمان

في الصحراء بالقرب من حلوان.. كانت الحياة الحرة في الصحراء تستدعيها.. لكنهما سرعان ما عادا إلى فندق "النيل" لمتابعة التطورات أو التعقيدات السياسية ونذر الثورة.. وكتبت آن بلنت: "متى يمكننا مغادرة القاهرة، للأسف لا أعرف، أتوق للهرب إلى الصحراء والعيش مع الجمال، ولكننا لا نستطيع ترك هذه الدوامة والفوضى السياسية.. كرة المضرب، ركوب الخيل، وزيارات متقطعة إلى الصحراء، كل ذلك كان كفيلًا بأن يملأ الوقت إلى يناير..."

فشلت المساعي الدبلوماسية.. وفي الحادي عشر من يوليو، فتح الأسطول البريطاني بقيادة السير "بوشان سيمور" نيران مدافعه على مدينة الأسكندرية لتتحول المدينة الجميلة إلى أطلال ودمار شامل، وكتبت آن تلك الملاحظة التي أنهت بها يومياتها عن القضية المصرية : "كان التدخل البريطاني قاسيًا وغير مسيحي" !

وتعددت رحلات آل بلنت إلى الهند واليونان وأيرلندا ولندن وباريس وروما.. وكانا خلال زيارتهما إلى القاهرة في سبتمبر عام ١٨٨٣ قد اشتريا مساحة سبعة وثلاثين فدانًا بمنطقة "الشيخ عبيد" بالقرب من المطرية، لتأسيس مزرعة للخيول، بلغت شهرة مزرعة "كرابيت" في لندن.. وكان يلفريد ينظر إلى المكان "كجنة لمغامرات عاطفية محتملة" !..

وخبت جذوة الحب بين الزوجين بعد ثلاثين عامًا من الحب العنيف، إلى أن تم الطلاق، وركزت آن وقتها في الإشراف على خيولها في "الشيخ عبيد".. وقررت أن تقضي ما تبقى لها من العمر في هذا المكان، و غدت خبيرة عالمية في سلالات الجياد العربية.

في الخامس من نوفمبر عام ١٩٠٦م، حرصت "جيرترود بل" على زيارتها، وكتبت آن بلنت : "كانت زيارتها لي مناسبة سعيدة؛ لأن لدينا أشياء كثيرة مشتركة بيننا، لقد أسفت جدًّا عند مغادرتها. إن صداقة المرأة العجوز لخليفتها المرأة المستكشفة للأراضي العربية كانت الكرم بحد ذاته".. وكانت جيرترود دائمة الثناء عليها، وهي التي جعلت من "الشيخ عبيد" أول محطة في برنامج زيارتها للقاهرة.

في يوميات الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٨م أشارت إلى أنها قد بلغت من عمرها الحادي والسبعين " إنه فعلا شعور مستحيل" !.. وأشارت إلى أنها كانت تمضي أكثر أوقاتها في مصر مع أصدقائها في الصحراء برفقة "مطلق البطل" مدير الإسطبل وثلاثة مرشدين من القبائل، كان الشيوخ في كل مرة سعداء برؤيتها، ويبدون دهشتهم لبراعتها ومهارتها في ركوب الخيل، وكانت قد تعلمت في قلب جزيرة العرب كيفية القفز على الجواد بدون الركاب والسير بدون لجام، حتى في السبعين من عمرها كانت بالمهارة نفسها!.. كانت الصحراء والجواد العربي عشقها وفرحها الدائم، فتقضي معظم وقتها في الحديث عن الجياد وسلالاتها الكريمة.. قررت آن المشاركة بأحد جيادها المفضلة "سعدون" في سباق مصر الجديدة في مارس عام ١٩١٢، وكان لورد "كيتشنز" المفوض البريطاني الشهير بالقاهرة أحد أبرز زوار مزرعة "الشيخ عبيد" ورفضت آن أن تبيع له المهرة الجميلة "غاديا".. وكانت تأمُل أن تدر استثماراتها في مصر – ألف جنيه سنويًّا – حتى يمكنها وابنتها "جوريث" عند وفاتها من الصرف على المنزل والإسطبل الخاص.

خلال عام ١٩١٣، كانت قد انتهت من كتابها الفريد "الجواد العربي الأصيل" ضمنته فصول عن : عادات الرحل في نجد وقلب الجزيرة العربية، حياة جواد الصحراء، فرسان العرب في العصر الذهبي، الشعراء، الخيل في الشعر، القبائل، السلالات..

وكانت نهاية حياتها الحافلة في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩١٧ بمستشفى "الأنجلو أميركان" بالقاهرة، و دفنت في مقبرة الراهبات بالجبل الأحمر، وقد صمم ويلفريد بلنت شاهد قبرها وكتب عليه : "هنا ترقد.. في الصحراء المصرية التي أحبت ليدى آن بلنت".

إميليا إدواردز
ورحلتها التاريخية في النيل

منذ أن غامر "هيرودوت" بالتوغل خلال نهر النيل في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد – ذلك النهر الذي استولى على الألباب – فإن هذه الرحلة استأثرت بافتتان الأوروبيين. إذ لم يستطع أحد أن يحل لغز غموض منابعه إلا حينما عاد "ستانلى". من رحلته عبر "لوالابا" و "الكونغو" عام ١٨٧٧. وقد زادت المعابد المصرية من الإثارة بما أضفته على الحركة الخيالية في القرن التاسع عشر لشدة تعلق تلك الآثار بالموت. كما اعتبر نابليون مصر بمثابة الحلقة الحيوية للتجارة مع الشرق حتى قام بغزو البلاد عام ١٧٨٩م.

وبالرغم من كل هذا فقد وصلت "إميليا ب. إدواردز" – وهي واحدة من أهم المؤرخين المتخصصين في وصل الحلقات التاريخية للنيل – إلى القاهرة في نوفمبر عام ١٨٧٣ مصادفة تقريبًا. فقد حضرت لتهرب من أمطار أوروبا، مع صديقة لها، ثم بقيت لتصبح عاشقة لعلم الآثار المصرية.

ولقد كانت "إميليا" واحدة من هؤلاء العوانس الجسورات المنتميات إلى العصر الفيكتوري اللائي تعد القراءة عنهن متعة، بل

يخشى المرء أن يقول إنه يبدو أن معرفتها: (تجربة جديرة بالاعتبار) وذلك على الأقل هو الانطباع الأول الذي يوجده نص كتابها، ولكن في الوقت نفسه فإنه مع قراءته، وإعادة القراءة، تصبح "إميليا" صديقة حقيقية بالرغم من كونها عملاقة إلى حد كبير، ولقد جعلها اهتمامها العظيم بالناس وتفهمها للثقافات المغايرة وعنادها في التشبث برأيها على أقرانها وأبناء وطنها، مثارًا للتعاطف أكثر فأكثر.

ولقد كان من الواضح منذ البداية المبكرة من العمر، أن لها موهبة متميزة، فكان أبوها ضابطًا في الجيش وحارب مع "ولنجتون" في حرب شبه الجزيرة، وتنحدر أمها من عائلة "والبول" وقد بدا أن هذا المزيج قد أعطاها شجاعة وحاسة تمييز فنية، ففي سن السابعة نشرت "إميليا" قصيدة لها في الصحيفة الأسبوعية، ثم في سن السادسة عشرة، وقع الاختيار عليها لتكون مغنية في الأوبرا أو تكون فنانة أو كاتبة، وفي النهاية استقرت في الصحافة والكتابة، وبين عامي ١٨٥٠ و ١٨٥٦ قامت بكتابة ثماني روايات وإن لم تكن غاية في التميز والإتقان، وقامت بنشرها في العديد من الصحف والمجلات، ونشرت أيضًا كتبًا شعبية في التاريخ والفن، كل هذا حتى بلغت الثانية والأربعين من العمر، حيث قامت بتلك المغامرة التي أعطتها "رسالة الحياة" ومنحتنا الذكرى الممتعة لها من خلال مؤلفها "ألف ميل خلال نهر النيل".

رحلة في نهر النيل

ومما يثير دهشتنا، أن تستطيع سيدتان في عام ١٨٧٣م القيام

برحلة في نهر النيل باستخدام قارب خشبي مسطح القاع، وبعد كل هذا ماتت "لفنجستون" في مايو من العام نفسه وتأخر "جوردون" لمدة ثلاثة أشهر في إنجاز أولى رحلاته إلى الخرطوم، ولم يكن مضى على افتتاح قناة السويس إلا سنوات أربع فقط، ولم تكن إبرة كليوباترة، قد أتمت وخزتها بعد بواسطة البريطانيين، وصحيح أن "توماس كوك" كان قد بدأ فعلًا رحلاته النيلية خلال النهر، وتروي "إميليا" أن قواربهم كانت غالبًا ما تلتصق بالضفاف الرملية، ولكن مع هذا فقد كانت مغامرة عظيمة.

كانت حصيلة إميليا إدواردز من هذه المغامرة عظيمة، وقد وضعتها للقارئ في "عبارات" مفعمة بالحيوية حيث كانت غالبًا ما تضفي من المتعة والمعرفة الواسعة، وكثيرًا ما تباغت القارئ، وغرامها بالتفاصيل تزيد من قيمتها كوثيقة تاريخية.

ولا يستطيع إلا من ولد كاتبًا أن يستحضر في ذهنه عبارات مثل "الإغريق اليونانيون في ملابسهم البيضاء الضيقة الباعثة على السخرية كإناث الأوز المتبخترة".

"إميليا" فقط هي التي تستطيع أن تهتم أو تعرف ذلك التبغ الرخيص الذي كانت تهبه لطاقمها كمنحة (بقشيش) وبدوا في غاية الامتنان "فهذا الخليط الرديء يباع في المحلات بستة بنسات للرطل والنبات الذي جمع منه (هذا الخليط) ينمو لبذرة سيئة النوع في تربة غير ملائمة من الناحية الكيماوية؛ لأنها مجردة كلية من البوتاسيوم" ولم يخبرنا كاتب آخر عن حمار "حليق الأرجل والمؤخرة دُهن بلون أزرق وأبيض يتميز بأشرطة من اللون الأصفر الفاتح" !

وبالطبع فإن الجزء الأكبر من هذا الكتاب، انصب على الاهتمام بأطلال الفراعنة، ومعابد مصر القديمة، فقد قامت "إميليا" بالقياس، ورسم "الإسكتشات" وقامت بالوصف وعددت كل التفاصيل التي يمكن تخيلها، فقد كانت تجتاز مع عروسين في شهر العسل ينطلقان خلال المعابد معًا، بينما تمتطي إميليا حمارًا لمدة ثلاث ساعات، في درجة حرارة تفوق المائة درجة فهرنهايت لتزور المعبد مرة ثانية !

وعلى أية حال فقد كانت "إميليا" إنسانة بالقدر الكافي الذي جعلها تقلق خشية أن تتبدل الحياة بشكل كبير وتفقد أفضل ما لديها، وفي الحق إنها خصصت صفحتين تقريبًا من مقدمتها لتشرح كيف أن مصر قد تغيرت منذ عهد الفراعنة ! وقد انضمت إلى بعض الرحلات السياحية الطويلة ببواخر "توماس كوك" البواخر نفسها التي قام "كتشنر" بتجنيدها للسفر إلى الخرطوم بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا ليثأر لمقتل "جوردون" !

لقد كان الأمر في غاية الفضول بالنسبة لذوق "إميليا" الذي كان علميًا إلى حد كبير، حتى تكتمل لنا الرؤية وماذا تمثل الأطلال الرومانسية الموحشة بالنسبة للأوروبي ؟

ونحن ممتنون لـ"إميليا" ومعلوماتها الأثرية الغزيرة، لكننا أكثر امتنانًا لذلك التصوير الدقيق للطبيعة البشرية، بما أضفى على صفحات مؤلفها من حياة، فكم أعشق سخريتها الذاتية، وتعجبها ورفقاءها من تلك الصور المحزنة التي صادفوها كقولها: (.. بقبعاتنا البشعة المصنوعة من ألياف النخيل وأغطية رؤوسنا الخضراء والمظلات البيضاء) إنني أعجب باهتمام بحياة طاقمها المكون من

عشرين فردًا، والتي تعرفت على أسمائهم خلال أيام، والاطمئنان على راحتهم أقلقها دائمًا، أحببت فهمها لتقاليدنا المصرية، وتسجيل كل التفاصيل التي يمكن ملاحظتها واهتمامها بوصف أول مرة ركبت فيها جملًا !

واستمرت "إميليا" بعد عودتها في اهتمامها بعلم المصريات، فقد أنشأت صندوق تمويل بعثات الحفائر في مصر، كما قامت بحملات لحفظ وترميم الآثار وتوفيت عام ١٨٩٢ تاركة مكتبتها لـ"جامعة لندن" مع بعض الأموال لإنشاء أول كرسي لعلم المصريات في بريطانيا، كما تركت واحدًا من أعظم "المؤلفات الكلاسيكية في تاريخ النيل"..

القاهرة والهرم الأكبر

إنه لمن قدر المسافر أن يتناول طعامه على كثير من موائد الفنادق خلال ترحاله، ولكنه من النادر أن يحدث له أن يتناول طعامه في أكثر الأماكن جمعًا للشتات، بحجرة الطعام الخاصة بالنزلاء بفندق "شبرد" بالقاهرة أثناء بداية وأوج الموسم السياحي المصري المعتاد. هنا يحتشد نحو من مائتين إلى ثلاثمائة شخص يوميًا، كرنفال من الأزياء والجنسيات والحرف، نصفهم من الهندو أوروبيين، منهم القاصدون إلى خارج البلاد ومنهم الماكثون، منهم الأوروبيون أو زائرون بقوا في القاهرة لقضاء فصل الشتاء، والنصف الآخر – ربما حصلوا على منحة – عازمون على السفر جنوبًا عبر النيل، كل هذه التركيبة والتباين، تمثل هذا الحشد من المسافرين عبر النيل شبابًا وشيوخًا،

مهندمين أو غير مهندمين، متعلمين أو جاهلين.. هذا هو اندفاع القادمين الجدد. لنتساءل عن البواعث التي تجعل كثيرًا من الناس، مختلفي المشارب والمهارات، يقادون للإبحار خلال بعثة أقل ما يقال عنها إنها مملة للغاية، مرتفعة التكلفة وهي أيضًا لها طابعها الموصوف بالخصوصية.

وعلى أية حال فإن فضولنا سرعان ما أشبع، وقبل أن يمضي يومان يعرف اسم كل شخص وعمله، مميزًا من أول نظرة بين سياح "كوك" وفرادى السياح، كما يكتشف أن تسعة أعشار هؤلاء الذين يحتمل أن يقابلهم على النيل، هم الإنجليز والأمريكيون، أما الباقون فيغلب عليهم الألمان ونذر يسير من البلجيكيين والفرنسيين، حتى الآن يبدون ككتلة واحدة، ولكن إذا دققنا في التفاصيل نجد أن الفوارق والتباين في الخواص مازالت قائمة.

هنا نرى المرضى الذين يبحثون عن الصحة، وترى الفنانين الباحثين عن موضوعات ملهمة، ونرى الرياضيين المملوئين شوقًا للتماسيح أو ترى السياسيين ورجال الدولة يقضون عطلاتهم، كما ترى المراسلين المتخصصين يقظين لالتقاط شوارد الأخبار، وجامعي الآثار والتحف تراهم يتشممون ويقتفون أثر البردي والمومياوات، وترى بعض العلماء لا يتجاوزون العلم المنظور، أما الباقون من الخاملين يسافرون لمجرد حب السفر أو إرضاء الفضول الهائم !

والآن هنا في مكان كفندق "شبرد" حيث كل وافد جديد له شرف الإسهام – ربما لدقائق قليلة على الأقل – في التسلية العامة. فالظهور الأول للسيدة "لفنجستون"...

حضرنا من الأسكندرية عبر طريق وعر من "برنديسي" بعدها إحتجزنا ثماني وأربعين ساعة في الحجر الصحي، ولم نلبس لطعام العشاء؛ لأننا لتونا جلسنا على المقاعد طلبًا للراحة. بعد أن أتينا من المحطة يتقدمنا "ترجمان" والأمتعة. كما أننا ننوت بالطبع أن نسافر جنوبًا عبر النيل. وإذا ما تجرأ شخص أن يسأل في كلمات كثيرة ما الذي أتى بنا إلى مصر ؟ كان علينا أن نرد في إيجاز "إنه صعوبة الطقس"..!

والحقيقة البحتة فإننا قدمنا هنا بالمصادفة ليس بسبب الصحة أو العمل أو أي موضوع جاد – أيًا كان نوعه – بل لجأنا إلى مصر كما يلجأ المرء إلى رواق "بيرلنجتون" أو إلى "ممر البانوراما" ليهرب من المطر !

ولسبب معقول فقد تركنا الوطن مبكرًا في سبتمبر. لنتجول عبر أواسط فرنسا دونما تخطيط مسبق. لعدة أسابيع قليلة يطاردنا البلل والرطوبة والطقس الندي. فكما شبعنا بللًا في جبال البلاد. فإننا لم نرحل في طقس أفضل في السهول. ففي "نيس" انهمرت السماء. تصب الماء صبًا لمدة شهر دون انقطاع. وانتهت المناقشة عما إذا كان من الأفضل أن نأخذ مظلاتنا المبللة ثانية ونعود في الحال إلى إنجلترا. أو أن نندفع متقدمين للأمام بحثًا عن الشمس المشرقة. وتطرق الحديث إلى الجزائر – مالطة – القاهرة ووقع الاختيار على القاهرة. ولم يحدث قبلها أن قررت بغتة هذا دون تروٍّ سابق. فبينما انتهينا إلى القرار تركنا في المسير. "نيس" "جنوا" "بولونيا" "انكونا" هذه مرت كما تمر الأحلام. فكما صحا "بدر الدين حسن" على أبواب دمشق. لم يكن أشد عجبًا من كاتبة هذه السطور عندما وجدت نفسها على

متن "سيملا" تقلع من ميناء "برنديسى" دون سابق إعداد، دون خبرة بالبلاد الشرقية، يجب أن تلاحظ أننا وصلنا إلى القاهرة في التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٧٣، وأقر بالحرف الواحد والواقعية المفرطة أن ذلك لم يكن إلا بحثًا عن طقس معتدل.

القاهرة ولوحات ساحرة

وإذا ما أراد أن يستمتع بأول انطباع غامر لا يمحى عن الحياة الشرقية العامة، فإن عليه أن يبدأ بالقاهرة.. لقضاء يوم في الأسواق العامة، لا من أجل الشراء ولا من أجل البحث عن صورة وصفية أو معلومات، بل من أجل استعراض المنظر تلو المنظر، بتراكيبه المتنوعة من النور والظل واللون والأزياء والتفاصيل المعمارية فإن كل واجهة حانوت وكل ركن في الشارع وكل مجموعة معممة تشكل لوحة واقعية متناسقة، أنظر إلى ذلك التركى الذي يشيد مكسلته (مصطبته) في مدخل باب مزخرف بالنقوش الأندلسية، أو إن شئت فأنظر إلى ذلك الغلام الذي يمتطى حمارًا يعلوه سرج (بردعة) مزركش مبهرج ينتظر الزبائن، أو أنظر إلى شحاذ غلبه النعاس على درج مسجد، أو إلى امرأة محجبة تملأ جرتها بالماء من سبيل عمومي، إنه ليبدو أن الجميع قد وضعوا بشكل تعبيري كأنهم متأهبون لكي يرسموا !

أما الخلفية فإنها ليست أقل تصويرية من الأشكال نفسها، فالبيوت عالية ضيقة، وتبرز الأدوار العليا ومنها تطل النوافذ ذات المشربيات الملتفة الدقيقة المصنوعة من خشب بنى قديم، وكأنها طائر ضخم ! وقد غطيت الشوارع بأسقف ذات عروق خشبية طويلة

وقطع من الحصير تتخللها أشعة الشمس بذراتها الترابية، فتنتشر هنا وهناك. أما الشارع فغير ممهد، ويمكن اعتباره طريقًا أو دربًا ضيقًا فحسب، وهو مملوء بالحفر ويرش بغزارة مرتين أو ثلاثًا في اليوم، وقد حدد الشارع بواجهات الحوانيت الخشبية كأكشاك صغيرة ملئت بالأرفف حيث يجلس التجار بين بضائعهم مقرفصين يتطلعون إلى الرائحين والغادين ويدخنون في صمت.

خلال ذلك، تكتظ طرقات المدينة بحشود من الناس تتدفق وتنحسر دون انقطاع، لا يستقرون كموج متعدد الألوان منهم الأوروبيون ومنهم الشرقيون، منهم من يمشي على رجليه أو يمتطي ظهور الخيل أو راكبًا عربة.. هنا يمكنك أن ترى "ترجمانا" شاميًا في سروال فضفاض وصدرية مزركشة، يمكنك أيضًا، أن ترى فلاحًا مصريًا حافيًا يرتدي حلة زرقاء بالية وطاقية من اللباد، وترى "يونانيًا " في لباس أبيض منشى، مثير للسخرية، يتبخطر كأنثى الأوز..! كما ترى فارسيًا يرتدي قلنسوة سامقة كالتاج منسوجة من الصوف، وترى البدو حول رؤوسهم شال يلتف مع عصابة مجدولة من وبر الجمل، وترى إنجليز بشورتات وقبعات من الخوص، وهولنديين تتدلى أرجلهم الطويلة من فوق الحمير التي تكاد لا ترى من فرط طولهم، ثم نساء مصريات من الطبقة الدنيا محجبات بخمر سوداء، لا يبدو منهن سوى عيونهن يجرجرن ذيول حبراتهن القطنية ذات الخطوط الزرقاء الداكنة والسوداء وترى الدراويش في ستراتهم المرقعة وشعورهم المجدولة تنسدل من تحت أغطية رؤوسهم "العجيبة" وترى الأحباش السود ذوي الأرجل المقوسة النحيلة، التي تحاكي قوائم سياج من الأبنوس

الواهن، وترى القساوسة الأرمن يبدون تمامًا كطبيب أو كـ"بروتيا" بطلة مسرحية شكسبير "تاجر البندقية" في عباءاتهم السوداء الطويلة وقبعاتهم المستديرة العالية. وترى أطيافًا مهيبة من العرب المغاربة، يسبحون في كامل زيهم الأبيض. فرسان الانكشارية على ظهور الخيل وسيوفهم المصلصلة وستراتهم المطرزة بالذهب. تجارًا ومتسولين، جنودًا وبحارة، وباعة وعمالًا، بكل التنوع في الملابس، وبكل التركيب والتكوين اللوني، من الأبيض إلى الأسود الحالك ومن الأسمر المائل للصفرة إلى النحاس ومن اللون البرونزي الخالص إلى الأسود المشوب بالزرقة.. وها هو "السقا" يمر أمامنا ينوء بثقل قربة الماء المصنوعة من جلد ماعز، لا تكاد تفرغ حتى تمتلئ، وقد ربطت أطراف القربة (جلد الماعز) وأحكم غلق الرقبة بخيط أصفر. كما ترى شعر الماعز على جلدها مما جعلها منتفخة وتشبه ماعزًا حيًّا بشكل مخيف.. وها هو بائع الحلوى يحمل صينية عليها "المشبك" اللزج الذي يعرف لدى أطفال الإنجليز بـ"قطعة المتعة". وها هي سيدة مصرية تمتطي ظهر حمار رمادي ضخم، يقوده خادم يتمنطق بسيف معقوف لامع على خصره. وترتدي المرأة فستانًا حريريًا مزخرفًا بالورود، وتضع برقعًا أبيض، إلى جانب هذا كساء حريري خارجي أسود فهي محجبة ومنقبة ومبرقعة. كل تلك الأوصاف تجتمع في واحدة. وعندما يهب الهواء تنتفخ وهي راكبة كأنها كرة. إنها تركب الحمار منفرجة الساقين وتبدو قدماها العاريتان من خلال خف (شبشب) بنفسجي مخملي، تستقران تمامًا على الركاب. أنظر إنها تتعمد أن تظهر ذراعها البني السمين، وهو مثقل بأساور كثيرة من الذهب.

وإحقاقًا للحق فإنه يبدو من نظرات عينيها السوداوين الصافيتين أنها لا تمانع في أن يرى وجهها أيضًا. أما الأتان فإنها ليست بأقل أناقة من صاحبتها ! فيبدو على قوائمها الأربعة الحليقة دهان أزرق وأبيض وكذا زينت مؤخرتها بأشرطة صفراء فاتحة. أما سرجها فهو متألق تكسوه القطيفة المطرزة بالقصب والفضة، وغطاء رأسها من الجلد الأحمر المزركش بالأشرطة والأزرار النحاسية. وحمار كهذا يساوي ما بين ستين إلى مائة جنيه إسترليني، وتمر بعد ذلك عربة حنطور غصت بنساء إنجليزيات مقهقهات، يتلوها مجموعة من الشيوخ المصريين العابسين يلبسون السواد جميعهم. يركبون أفراسًا عربية رشيقة كستنائية اللون مشوبة بحمرة. ثم ترى مصريًّا أنيقًا يرتدي زيًّا أوروبيًّا وطربوشًا، وتركيًّا يجلس في عربة (Phaeton) إنجليزية يقودها سائق إنجليزي، يجري أمامه سايس (Sais) وطني يمسك عصا في يده. حافي القدمين ذو عينين شاخصتين، يرتدي طاقية يونانية وجبة للخصر بهية مطرزة بالذهب وجلباب أبيض فضفاض وجرت العادة على أن كل وجيه في القاهرة لا ينتقل إلا ومعه واحدًا أو اثنين من هؤلاء.. وهؤلاء السائسون (عادة ما يكونون أقوياء، يتميزون بالحيوية والخفة والرشاقة كعطارد يوحنا البولوني) يعرف عنهم أنهم يموتون صغارًا، فإن كثرة العدو تودي بهم. يلي ذلك بائع الليمونادة يحمل إناءً في يده وباليد الأخرى إبريقًا وكؤوسًا نحاسية، يليه بائع أحذية يحمل مجموعة من النعال المغربية الصفراء والحمراء، تتدلى من نهاية عصا طويلة، وها هي مركبة لندنية الصنع تحوي سيدتين ترتدي كل منهما برقعًا تركيًّا شفافًا، يقودها سائس نوبي في بزة شبه عسكرية، وربما

ترى قطيعًا من الإبل (الهائجة) الشامخة برقابها الجعدة فوق الزحام محملة بأكياس مربوطة عليها عناوين بخط عربي..!

ولكن التجار المصريين سواء العرب منهم أو الأتراك المختلطين منهم بالجموع الهادرة أو الجالسين منهم على مناضدهم، هم أكثر الشخصيات ظهورًا في كل ذلك المشهد الصاخب. يلبسون العمامات الضخمة على رؤوسهم، أغلبها من اللون الأبيض ويرتدون ثيابًا مقلمة بالحرير السوري تصل إلى أقدامهم ثم جبة مصنوعة من القماش المزركش أو الكشمير، وقد حزم الثوب على الخصر بشاش ثمين. أما الجبة فهي عامة ذات لون متدرج جميل، مثل ألوان الذرة والتوت والزيتون والخوخ وخضرة البحر والقرنفل السلموني والبني الطحيني، أو ما شابه ذلك. وكل هذه الكائنات الجليلة لابد لها من أن تشتري وتبيع بشكل سوقي، بدلًا من أن تمكث طوال حياتها في الدواوين الفخمة، يقوم على خدمتهم شركسيات جميلات.

ومن أجمل المظاهر المسلية على الإطلاق، تلك الأسواق التي تنفرد بنوع من التجارة وتشغل حيًّا منفصلًا، فحينما تمر من خلال بوابة حجرية قديمة أو تدور مع "عطفة" ستجد نفسك وسط مستعمرة من السروجية، هؤلاء يخيطون وهؤلاء يطرقون وأولئك يثقبون وآخرون يكسون، ترتفع مع زقاق وتنزل مع آخر، بين واجهات المحلات التي علق عليها أطقم رؤوس الخيل ذات الشرابات، وسروج محدبة للدواب من كل نوع وكل لون، هنا تجد سروج خيل السيدات، سروج خيول الجيش، سروج الحمير، وسروجًا خاصة بخيول وجهاء وضباط الدولة، وتجد سروجًا غشيت بجلد أحمر، وغطيت بعضها بقطيفة بنفسجية

اللون وبعضها بالمخمل القرمزي، بعضها الآخر موشى بقماش أحمر داكن، أو رمادي أو أرجواني وتجد سروجًا طرزت بالذهب أو الفضة رصعت بأزرار نحاسية أو زينت بأشرطة مزركشة.

أما سوق السجاد فيمتد وكأنه بلا حدود، ويشتمل على شبكة من الأزقة والحواري الجانبية إلى يمين شارع الموسكي، الذي يعد الشارع الرئيسي في القاهرة، البيوت هنا في معظم هذه الحواري غنية بالمشربيات العتيقة والمداخل والأبواب الشرقية، وفي ميدان صغير، في كل أركانه، أبسطة (بُسُطٌ) وسجاجيدُ سورية وفارسية وأجربة السروج الدمشقية، وسجاجيد صلاة تركية، بينما يجلس التجار يدخنون بين بضائعهم، وشيخ يجلس على أحد النواصي يعرف بـ"القهوجي" أو بائع القهوة يلح لترويج بضاعتة المتواضعة، لقد صنع موقدًا صغيرًا ومن ورائه رف معلق إلى جوار مدخل خان خرب، يعلو جدرانه زخارف الأرابيسك على أحجار قديمة منحوتة، هنا تجد أكثر بقاع القاهرة حيوية وتصويرية، ها هي السجاجيد التونسية المخططة، الأقمشة الجزائرية الحمراء والرمادية والزرقاء.. وأيضًا السجاجيد الوبرية الآتية من اللاذقية، والأبسطة التركية ذات اللون الأزرق الثري واللون الأخضر والأحمر اللطيف، فضلًا عن التنوع الرائع والزخارف المتناغمة في السجاد الفارسي وكل يحمل عاداته المحلية في حوار متجاورة، والمرء لا يمل ولا يتعب من التنقل بين هذه الطرقات خافتة الإضاءة التي تتلألأ بألوانها البهية والتي تذخر بالعابرين يبدون وكأنهم ممثلون في مسرحيات ليلة عيد الميلاد أو في مهرجان شرقي الطابع.

سوق خان الخليلي

وفي خان الخليلي، يطالعنا سوق صاغة الذهب والفضة، ومن النادر أن تعرض بضائع للبيع، والأزقة غاية في الضيق في هذا الجزء، لدرجة أن شخصين لا يستطيعان أن يمرا بسهولة إذا مشيا كل بصدره، والحوانيت بالغة الصغر أكثر مما تتصور وهي عبارة عن دواليب فحسب، يبلغ عرضها ثلاثة أقدام، وأعد كل صوان على شكل صفوف من الأدراج الصغيرة والفتحات الضيقة وفي الأمام نوع من الدرج الحجري المغطى بالحصير يسمى "مصطبة" وتستخدم في الجلوس والعرض، حيث يجلس المشتري على حافة المصطبة ويجلس التاجر القرفصاء أو متربعًا بالداخل وعلى هذه الحالة يستطيع دون أن ينهض من مكانه، أن يسحب درجًا تلو الآخر، بعدها تتحول المسافة الفاصلة بين الرجلين إلى أكوام من حلي الذهب والفضة، وهذه المشغولات تختلف عن بعضها فقط طبقًا لنوع المعدن حيث تتطابق الزخارف، وتباع بالوزن مع هامش الربح، وبالتعامل مع الغرباء الذين لا يعرفون الأسلوب المصري في (البيع والشراء) والأوزان، فإن المشغولات الفضية عادة ما توزن وتقوم بالروبية أو خمسة فرنكات للقطعة والمشغولات الذهبية تقوم بالعملة النابليونية أو بالجنيهات الذهبية الإنجليزية، والمشغولات التي تصنع في القاهرة تشمل بشكل أساسٍ السلاسل والأقراط والأساور والخلاخيل والقلائد المحلاة بالعملات وحليات هلالية، وصناديق التمائم المشغولة بالتثقيب والطرق والزخرفة البارزة وتتميز جيمعها بتصميمات غنية وعتيقة، أما بالنسبة للتجار فإن لطفهم وحلمهم لا نهاية له وصبرهم غير قابل للنفاد.

وتوجد أسواق كثيرة أخرى في القاهرة تتميز بالتخصصية، كسوق الحلوى وسوق الأدوات المعدنية والخردة، سوق التبغ، سوق النحاسين، سوق السيوفية، سوق المغاربة حيث تباع الطرابيش والبرانس والقلنسوات الفارسية.

وفي أثناء ذلك كان أول أعمالنا أن نتطلع إلى استئجار دهبية، وقد أجبرنا ذلك على أن ندير خطواتنا باستمرار و كذا أفكارنا تجاه "بولاق" وهي مكان منعزل بجوار النهر، حيث نحو من مائتين إلى ثلاثمائة قارب نيلي ترسو على الشاطئ خصيصًا للتأجير. حقًا إنه أمر محير ومرهق، بما لا من صعوبات فريدة، فالقوارب جميعها، في أول مكان رأيناه شُيدت بتصميم موحد، وهذا الأمر يختلف في حالة البيوت، ولا تختلف القوارب إلا من حيث الحجم والنظافة أو القذارة، فإنها تتشابه تشابه تؤام من المحاريات، ويمكننا القول أيضًا أن بحارتها متماثلون، مع اختلافات تشبه اختلافات القوارب، هذا على الأقل بالنسبة لشخص ليس له في مصر إلا أيام معدودة ! ثم يعرض علينا "الريس" الشهادات التي منحها له الرحالة السابقون وهذه الشهادة تدور بنشاط على ما يبدو بفعل أيد خفية.. ! من قارب إلى آخر ومن يد إلى أخرى ومن مدع إلى آخر، وليس هذا كل ما في الأمر، وإنما يتغير مكان "الدهبية" من آن لآخر، بخلاف المنازل المستقرة، لدرجة أن القارب الذي تراه بالأمس يقف بجوار الضفة الشرقية للنيل، ربما يختفي وسط دستة من القوارب على بعد نصف ميل داخل النهر. كل هذا من الأمور المحيرة والمربكة، وكل هذا لا يعد شيئًا إذا ما قورن بحالة البلبلة التي تصيب المرء إذا ما حاول أن يعقد مقارنة بين تلك

القوارب من حيث المزايا والعيوب، وللبعض منها ست كبائن والأخرى ثمان، وتلك التي زودت بقاعة طعام والتي لم تزود بها، والتي تستطيع عبور الشلالات وتلك القوارب التي لا يمكنها ذلك، لكنها بصفة عامة - تعرض بأجر باهظ ويا لأسمائها أيضًا : "غزال" و "سروة" و"فسطاط" و "دنقلة"، أسماء لا تشبه أي شيء سمعته من قبل، ولم تسعفني الذاكرة بأي شيء يساعد على تذكر مثل تلك الأسماء، وكذا أسماء البحارة، فجميعهم يدعى "محمد" أو "حسن" وكذا أسعارهم فهي لا تثبت على حال من يوم لآخر، طبقًا لأسعار السوق، كما يعرضه ويشرحه العائدون من رحلاتهم ويذكرونه في الفنادق الرئيسية.

أضف إلى ذلك حقيقة أنه لا يوجد بينهم "رَيِّس" يتحدث أي لغة أخرى غير العربية، وأن كل كلمة في المناقشة أو المساومة يجب أن تفهم ولا يدعها تمر، مهما كانت الترجمة بها، أخطاء كثيرة أو قليلة، وذلك من خلال ترجمان.. وربما بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا على هذا التنوع من متعة الملاحقة، أن يكونوا فكرة عن ذلك الأمر المرهق المضجر السقيم الذي ينتظرهم عند البحث عن دهبية في القاهرة.

وأولى رحلاتنا المذهلة المبكرة، بالطبع كانت إلى الأهرام التي تقع على مسافة ساعة ونصف الساعة بقيادة متمهلة من باب الفندق، وقد بدأنا رحلتنا فور تناولنا الإفطار مبكرًا، بعدها قطعنا طريقًا جيدًا ممهدًا كله، وعدنا وقت العشاء في الساعة السادسة والنصف، وليكن واضحًا أننا لم نذهب لنرى الأهرام، بل ذهبنا فقط لنلقي نظرة عليها، وبعد ذلك بوقت طويل (بعد أن قمنا برحلتنا

عبر النيل) عدنا مرة ثانية ليس فقط من فراغ وتأمل بل أيضًا بفهم عملي – لا بأس به – عن المراحل المتعددة التي استغرقتها العمارة والفن المصري، منذ ذلك الزمن السحيق الذي عاش فيه خوفو وخفرع، ووقتها فقط نستطيع أن نقول إننا رأينا بحق الأهرام. ولحين وصولنا إلى هذه المرحلة من حجنا، يستطيع المرء أن يعرض كل شيء كوصف تفصيلي للأهرام وما حولها، وكانت هذه الزيارة القصيرة كافية لتكوين انطباع إجمالي عنها.

ويستطيع معظم الرحالة والمسافرين أن يلتقطوا نظرة خاطفة على الأهرام، من خلال نافذة عربة قطار السكة الحديد وهم قادمون من الأسكندرية، وتلك النظرة لا تترك انطباعا مؤثرًا؛ لأنها لا تستغرق قدر خروج نفس أو دخوله، وعلى سبيل المثال، فإنها تشبه الانطباع الأول عن جبال الألب من المستوى الأعلى بخط "نيفشتال" أو تشبه الصورة الخارجية لـ"لاكروبوليس" بأثينا، إذا ميزه المرء لأول وهلة من البحر، ويبدو الشكل ثلاثي الزوايا، صغيرًا ومظللًا كما يبدو شديد الألفة بحيث لا يكون أبدًا مروعًا... ولكن التأثير يشتد حينما تقترب منها وتلاحظ أنها تكبر وتكبر عند كل خطوة تخطوها على الطريق إليها، حينئذ يبدأ المرء في الشعور أنها لا تبدو أليفة على الإطلاق !!

ولكن في النهاية، عندما يصل المرء إلى حافة الصحراء، ويتسلق المنحدر الرملي والهضبة الصخرية، يتربع الهرم الأكبر بحجمه الضخم وغير المتوقع وجلال ارتفاعه فوق هامات البشر، هناك فقط يأتي التأثير الغامر بشكل فجائي، انظر ها هو الهرم يوصد صفحة السماء ويغلق الأفق، إنه يغطي على كل الأهرامات الأخرى

لضخامته، إنه ينزع منك كل إحساس عدا الإحساس بالرهبة والخشية والعجب..!

ويفاجئنا الهرم الأكبر، وبشكل محير، وغير متوقع، إنه على غير الصورة التي عرفناها عنه منذ الطفولة، إن أحجاره الخارجية التي كانت تكسوه قد نزعت عنه منذ خمسمائة عام، لتشييد المساجد والقصور العربية، والهيئة الصخرية الخارجية لهذا الهرم العملاق تغمرنا بالدهشة على أي حال، فلا هي تبدو كأطلال أو أنقاض بل بدا كبناء شامخ ترك أن يستكمل وكأن العمال قادمون إليه صباح الغد ليستكملوا ما بدأوه !!

والألوان هي الأخرى شيء عجيب، فقليل من الأشخاص هم الذين يستطيعون أن يدركوا مدى ثراء التدرج اللوني للأصفر المغبر، الذي اكتسبه الحجر الجيري المصري بعد هذه الحقب من التعرض لهوج السماء، فترى الأهرام تحت الأضواء المعينة وكأنها أكوام هائلة من سبائك الذهب !

وتمضي بنا – إميليا – في وصف رحلتها، وانطباعاتها عندما تسلقت الهرم الأكبر، بمساعدة الأدلاء الأعراب وتشجيعهم لها، وزيارتها لمعبد أبى الهول وثلاث من المقابر الرئيسية بالمنطقة، وما بين التأمل العميق والمشاعر الجياشة لمرأى أبي الهول وهو يلقي بنظرات غامضة هادئة فوق مياه النيل، ومشهد غروب الشمس، والظلام الجبار الحاد ينشر جناحيه العملاقين ببطء على الهضبة الصخرية بالصحراء، وشيء ما يقترب ليثير الرعب !.. وتستكمل نزهتها في اليوم التالي بزيارة مسجد السلطان حسن، أجمل مساجد الإسلام على الإطلاق..!

وكتبت عن مدرسة السلطان حسن: ".. لقد بني هذا المسجد العظيم في أثناء تلك اللحظة السعيدة التي بدأ فيها الفن الإسلامي في مصر يتوقف عن الاحتواء أو التقليد ويستنبط لنفسه طرازًا معماريًّا أصيلا.. البناء كله وطني خالص، إنه يتفوق على المسجد الأموي في دمشق وجامع آل صوفيا في القسطنطينية في التصميم والتناسب وفي جاذبيته الشامخة التي تفوق الوصف.. "[1]*

عندما أوصلنا "الحنطور" بصعوبة إلى أسفل درجات السلم العظيمة، ثم صعدناها ونحن نتطلع إلى البوابة الرئيسية شاهقة الارتفاع وخلعنا أحذيتنا قبل الدخول إلى صحن المسجد، مشهد ساحة المسجد لأول مرة يمثل قمة الإثارة، إنها لا تشبه شيئًا رأيناه من قبل"..

وتصف إميليا عمارة المسجد من الداخل، الجدران الشاهقة، أرابيسك المنبر، العقود، الزخارف الهندسية، الرخام والسجاد الشرقي الفاخر، كما وصفت "الميضة" وقالت: " إنها تتوسط الساحة "فسقية رائعة لها سقف تعلوه قبة جميلة" وكانت المرة الأولى التي تشاهد فيها المسلمين في أثناء الصلاة "تأثرنا كثيرًا لاستغراقهم العميق غير المتكلف.. ولم نكن نعرف أن المسلم الصالح يتصف

١- جامع السلطان حسن : وصف بـ"درة العمارة الإسلامية" وأعظم مفاخرها، شيده السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بدءًا من سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م وقد جمع "هرتس باشا" أقوال الرحالة المسلمين والأجانب في وصف عظمة هذا الجامع، راجع : خطط المقريزي، الخطط التوفيقية، ابن تغري بردي "النجوم الزاهرة" وتعليقات د. محمد رمزي في الجزء التاسع، د. حسن عبد الوهاب : "تاريخ المساجد الأثرية" سعاد ماهر : "مساجد مصر"، انظر أيضًا : -Haute Coeur, ١٩٦٦ ,Wiet,G.: Les Mosquees du Caire, Hachette - , ١٩٣٢ ,L.: Les mosquees du Caire, Paris

بالتقوى خارج المسجد مثلما هو داخله".. ولاحظت إميليا مظاهر الإهمال وعدم ترميم وتجديد هذا المسجد العملاق..

ثم توجهت إلى مسجد "محمد علي باشا" [٢]* داخل حرم القلعة، على حافة بارزة من تلال المقطم -من أكثر مناطق القاهرة روعة- وكتبت عن المسجد: "مبنى عام فسيح وثمين ومزدهر، لا يحيط به شيء جميل سوى الفناء الرخامي العظيم والفسقية، أما داخل المسجد فقد شيد من المرمر الشرقي الفاخر، وفرش بأفخر السجاد التركي، وتدلى من سقفه عدد من الثريات الضخمة من البلّور المصقول"..

ومن هذا المكان، شاهدت أهرامات الجيزة على بعد نحو اثني عشر ميلا.. كما شاهدت صفحة النيل تزدان بأشرعة القوارب، المآذن والقباب، المنازل والمشربيات "مشهد معقد التفاصيل للقاهرة المدهشة" !

ومن فندق "شبرد" توجهت وجميع النزلاء إلى خارج "باب النصر" لمشاهدة "موكب المحمل" [٣]*.. الزحام يتزايد في كل لحظة، وانتشرت

٢- مسجد محمد علي : شرع في بناء هذا المسجد سنة ١٨٣٠ واستمر العمل فيه بلا انقطاع. دفن محمد على باشا في الضريح إلى يمين المدخل الرئيسي، واستكملت كسوة الرخام وأعمال النقش والتذهيب والقصورة النحاسية في عهد عباس باشا الأول، وكان الجامع موضوع عناية خاصة من الخديو إسماعيل والملك فؤاد ثم الملك فاروق، قام بتصميمه المهندس التركى "يوسف بشناق" وكتب د.حسن عبدالوهاب : "كما أن الأهرام رمز مصر القديمة فهذا المسجد رمز مصر الحديثة" راجع : د. جسن عبد الوهاب : "تاريخ المساجد الأثرية". أيضًا : - Creswell. K.A.C: The muslim Architecture of Egypt, Oxford, ١٩٥٨ , -Haute Coeur, L.: Les mosquees du Caire, Paris, ١٩٣٢ ,

٣- Wiet,G.: Les Mosquees du Caire, Hachette, ١٩٦٦

لمزيد من التفاصيل راجع : خطط المقريزي الجزء الثاني، إدوارد لين "المصريون المحدثون عاداتهم و شمائلهم" مصدر سابق. أيضًا : عرفة عبده علي "المحمل وأيامه" كتاب اليوم، القاهرة، ٢٠١٢

في هذه الساحة: أكشاك بيع الطعام، المراجيح، رواة السير الشعبية والحواة، بائعو الفطائر والحلوى والعصائر، الساقيون، وبائعو البلح والبطيخ والبرتقال، والبيض المسلوق، والمكسرات.. نساء محجبات، مصريون وعرب وأحباش ونوبيون.. وتتصاعد في الجو الضحكات وتشكيلة من اللهجات والعطور الشرقية... ويتهادى الموكب بين دقات الطبول وسلسلة من الجمال، تتقدمه

فرقة الموسيقى العسكرية، ثم فرقة من الفرسان، يليها كتيبة من المشاة، الضباط والجنود في حللهم الفخمة المطرزة بخيوط الذهب.. ويتقدم "الشيخ البكري" ورئيس دار صناعة الكسوة الشريفة و" شيخ الجمل" مواكب دراويش الصوفية بالرايات والبيارق والأعلام الملونة، وتعددت الوقفات، وتدافع الحشود للتبرك بالمحمل "وهو صندوق يزدان بزخارف ذهبية يحمل الكسوة التي ترسل سنويًّا إلى الكعبة وضريح النبي – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-"..

كما زارت في اليوم نفسه "جامع عمرو.. ويمثل نقطة انطلاق في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر" ووصفت عمارته، لكنها رثت حالته المتداعية !

شبرا.. شانزليزيه القاهرة !

وبعد ظهر يوم مشرق، توجهت ورفاقها بالحناطير إلى "شبرا" للاستمتاع بحدائق القصر الصيفي للخديو.. "ويعد شارع شبرا

بمثابة شانزليزيه القاهرة" (٤)* وتصف الشارع بأنه عريض ومنبسط ويرتفع نحو ستة أقدام فوق السهل المزروع، وعلى جانبيه ترتفع أشجار السنط والتين والجميز، والتي تمتد من محطة السكك الحديدية الرئيسية حتى القصر الصيفي.. وعلى جانبيه سقائف لتقديم المشروبات، ويزدحم بالناس بعد الساعة الرابعة يوميًّا.. "ويركب الفلاحون حميرهم إلى جوار الملحق الدبلوماسي الراكب جوادًا مطهمًا، والسائحون في الحناطير، ورجال المال في عربات يجرها حصانان، والحريم المحجبات يركبن عربات بريطانية يجر كل منها حصان واحد، ويركب الشيوخ الحمير الفخمة، وتتهادى الفتيات الإنجليزيات بقبعاتهن وبنطلوناتهن الضيقة استعدادًا لركوب الخيل.. وأبناء الخديو في مركبات فاخرة يتقدمها ثمانية من السياس والحراس.. وحدائق قصر الخديو كانت تلقى الرعاية الكاملة، حيث انتشرت أحواض النباتات والزهور النادرة، وأشجار السنط، وأشجار البرتقال والليمون والرمان والموز.. وأشجار السالفيا والدفلى والبونسيته

٤- لقد كانت شبرا فيما مضى هي "فردوس القاهرة" هكذا وصفها الأديب والرحالة البريطاني "دوجلاس سلادين" في منتصف القرن التاسع عشر، وأشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالي، محاطة بحدائق تزخر بأندر النباتات والأشجار، وأنها كانت المقر المفضل والمحبب إلى محمد علي باشا، ووصف البحيرة الرخامية والنافورة بقصر الباشا بأنها "إحدى عجائب مصر" كما فتن بمشهد النيل في الليالي القمرية والزوارق تتهادى على صفحته... وتحت عنوان "ذكرى من شبرا" كتب الرحالة الفرنسي دي نيرفال : "فى القاهرة، زرت مقر والي مصر، مقر جميل في شبرا، جعل منه محمد علي: جنة الشرق !.. وطريق شبرا على جانبيه الحدائق والأشجار الظليلة - لا مثيل له في العالم – و برع في وصف قصر الباشا وحدائقه وأروقته وأقفاص الطيور النادرة وقاعات الاستقبال الفخمة والبحيرة المرمرية الساحرة وقوارب ذهبية ونافورات يونانية والمكان كله يتضوع عطرًا.. كما وصف شبرا الرحالة الفرنسي "مونتبار" بأنها "شانزليزيه الشرق" !

وغيرها من الأشجار النادرة التي استجلبت من الصين والهند وأفريقيا والمكسيك... وشاهدت "أعظم مناظر القصر ويتمثل في النافورة الإيطالية الضخمة الشهيرة وهي من طراز الروكوكو" وخرجن من القصر، تحمل كل واحدة منهن باقة كبيرة من الورود والزهور.. بينما "النيل يتدفق مثل غدير من النور السائل" !

ومن فندق "شبرد" توجهت إميليا مع رفاقها إلى "بولاق" ليستقلوا الدهبية "فيلة" المخصصة لهم، وكانت ترسو خلفها دهبية صغيرة "باجستونز" لسيدتين إنجليزيتين صارتا صديقتين، ثم دهبية ثالثة تحمل العلم الفرنسي مؤجرة لعدد من الوجهاء الفرنسيين... في طريقهم إلى أسوان.. "ما أسعد المسافرين في النيل الذين يبدأون رحلتهم مع النسيم العليل بعد ظهر يوم وضاء.. الدهبية السعيدة تشق طريقها في سرعة وثبات، وأخذت القصور والحدائق تتلألأ على ضفتي النيل ثم تتوارى خلفنا، كما أخذت المآذن والقباب تتباعد بسرعة عن الأنظار" وتصف إميليا الحياة في الدهبية والقبطان والبحارة وطاقم الخدمة، ومشاهداتها على ضفاف النيل، حتى وصلت إلى "البدرشين" حيث غابة شاسعة من أشجار النخيل، وزاروا "عجائب سقارة".. ورصدت جوانب من الحياة الاجتماعية لأهل قرية "دهشور".. بعد أن شاهدت أهرامات أبو صير وعدد من المقابر، أهمها مقبرة "تى" وأطلال معابد ومومياوات وتماثيل كثيرة أهمها التمثال الضخم لـ"رمسيس الثاني المنبطح" !.. وبيت "ماريت" المهجور..

وفي الطريق إلى "المنيا" تلاحظ إميليا "ان تاريخ مصر القديمة يسير عكس تيار النهر" !.. وتصادف وصولهم يوم انعقاد السوق فكانت المنيا في أبهى صورها، كما تصادف ليلة الاحتفال بعيد ميلاد

السيد المسيح. وانهمك طاقم الخدمة في إعداد الوليمة بذبح خروف احتفاء بالمناسبة. وانطلقت أجراس الكنائس. وفي المساء دعو إلى "وليمة بدوية مدهشة" بين الموسيقى والرقص والألعاب النارية.. وقاموا بزيارة إلى المقابر المحفورة في صخور جبل "أبو فايدة".. ثم مقابر "بني حسن" الشهيرة..

وفي رحلتهم النيلية إلى "أسيوط" اتسع أمامهم الوادي الخصيب. وتصف مناظر الجبال الوردية البعيدة وانحناءات النهر والمآذن العديدة. والسواقي والشواديف ومزارع النخيل وجمالًا هادئًا متحررًا!..

وشاهدت في أسيوط شارعًا مخصص لتجارة الفخار. ومحال لبيع الأحذية الحمراء (المراكيب) والسروج والأسلحة والكبريت والخمور المستوردة.. كما شاهدت عددًا من المقابر الأثرية وكتبت: " المقابر هنا مثل غيرها في أنحاء مصر سكنها المسيحيون الأوائل خلال حكم آخر أباطرة الرومان. وينسب إلى هؤلاء النساك الأسطورة التي تجعل من "ليكوبوليس – أسيوط" مقرًا لإقامة القديس يوسف النجار والعذراء مريم خلال رحلة العائلة المقدسة في مصر. هذا إذا كانت العائلة المقدسة قد جاءت إلى مصر مطلقًا "!

وبينما الدهبية تمخر بهم في النيل. تزاحم البحارة على الجانب الأيسر وأخذوا يلوحون بأيديهم والقبطان يرسل تحياته وعيون الجميع تتجه نحو الشاطئ "انظري إليه.. إنه الشيخ سليم.. إنه شيخ عار يجلس في مكانه هذا منذ خمسين عامًا ويعتبره الجميع شيخًا مبروكًا يفيض بالقداسة" !

وتمر إميليا بقرية "قصر الصياد" ومصنع للسكر ودير للأقباط

وضريح تظلله شجرة دوم.. حتى وصلت إلى "أبيدوس" ثم إلى "معبد دندرة" وشاهدت الأطلال والأعمدة الغنية بالنقوش البارزة وبآلاف من أعشاش النحل !

وتشير إميليا إلى أن "معبد دندرة" هو أضخم وأقدم المعابد التي شيدت في عصر الازدهار في أثناء حكم بطليموس الحادي عشر..

وتتحسر على أعمال التخريب والهدم التي طالت كنوز مصر الأثرية "لقد ألقى الفرس بالتحف الفرعونية وأهملوها، وشوه الأقباط معابد البطالمة والقياصرة، أما العرب فقد نزعوا الطبقة الخارجية للأهرام" !.. وتبدي إعجابها بالأعمدة التي تزدان برأس "الإلهة حتحور" وبالنقش البارز الشهير لكليوباترا وقرص حتحور وعرش إيزيس وعن الجدائل الحريرية وغطاء رأس كليوباترا كتبت: "مازالت نساء مصر والنوبة يرسلن شعورهن بمثل هذه الطريقة".. وسردت بالتفصيل عمارة المعبد: " الأروقة والقاعات والغرف الجانبية، والأعمدة، وبهو المراكب المقدسة ونقوش لأساطير الآلهة وقوائم وسجلات وخريطة للأبراج الفلكية والتاريخ الكامل لبعث أوزوريس ونظام الصلوات وتقويم للأعياد"..

في اليوم الثالث للرحيل عن دندرة، اقتربت الدهبية من الأقصر "لقد قرأنا كثيرًا عن طيبة، و راودتنا في أحلامنا ولكنها كانت تظهر بعيدة تمامًا " وتراءت لهم أعمدة الكرنك والبوابة الفرعونية والمنازل البيضاء التي يقيم فيها قناصل بريطانيا وأمريكا وبروسيا، وعدد من الدهبيات والقوارب في مراسيها.. وتدافع الأولاد (المكارية) بحميرهم " عَدَّ الجميع أننا فريستهم المباحة وصاح أحدهم: هذا

حمار أمريكي.. وصاح آخر: هذا موسى السريع.. وتقدم صبي بحمار أعجف عجوز قائلًا : هذا حمار أمير ويلز ! حفظ الله الملكة" !

وأشارت إميليا إلى أن الأقصر:قرية كبيرة يسكنها خليط من الأقباط والمسلمين وجميعهم يمارسون تجارتهم المزدهرة في العاديات.. وسردت تفاصيل معبد الأقصر وبهو الأعمدة ومسلة من الجرانيت الأحمر مصقولة بأسلوب رفيع مغطاة جوانبها الأربعة بنقوش هيروغليفية رائعة، وعلى الجدران نقوش بالغة الدقة لآلهة، ورجال محاربون،، وخيول وعربات حربية ومواكب نصر، وتفاصيل للمعارك الحربية التي خاضها – رمسيس الثاني – ضد الحيثيين.. وتخلد هذه النقوش تلك الحملة التاريخية بقيادة " سيد العالم.. والشمس الحارسة للحقيقة" !

وحاولت إميليا أن تقضي وقتًا في بهو الأعمدة، قبل الوصول إلى المقصورة وقدس الأقداس والغرف الملاصقة له.. - وخارج دلائل العظمة- كانت هناك متاهة من الحواري والممرات المدخنة والمعقدة وأكواخ طينية وأبراج حمام وأحواش ومسجد وأطلال، وأعمدة فخمة تبرز وسط حظائر الإبل والمواشي والطيور..

وفي طريقهم إلى "الكرنك" مروا بالحي القبطي ومكتب البريد والسوق السياحية.. وبينما الحمير تندفع بهم عبر سهل واسع، تراءت لهم الأبواب الضخمة فوق مستوى أشجار النخيل، حتى مضوا في "طريق الكباش".. وعقب اجتياز المدخل الرئيسي أحست كما لو كانت في حلم، وقد انفتح أمامها منظور ضخم من الأعمدة والأبهاء وتماثيل عملاقة مشوهة تحمل خراطيش رمسيس الثاني، حتى وصلت

إلى قاعة سيتى الأول الشهيرة. وبينما انشغل الجميع في اختبار دقة قياسات "ويلكنسون" و "ماريت" ظلت إميليا تنظر في صمت وإجلال وقد صورت هذه القاعة في ركن مظلم من ذاكرتها الحافلة بالأشياء العظيمة!.. وأضافت: " إن البهو الكبير في الكرنك هو أعظم الأعمال المعمارية التي صممت وطُبِّقَت بأيدي الإنسان" وقد بهرتها الأعمدة الملفوفة في ظلال غامرة وحزم من الضوء. منقوشة وملونة بأشكال الآلهة والملوك والأسماء الملكية. ومذابح تقديم القرابين. وأشكال الحيوانات المقدسة ورموز الحكمة والحقيقة.. " هذه الأعمدة كلها من عجائب الدنيا" !

وحرصت إميليا على زيارة "بيت فرنسا" حيث خمدت الحياة تمامًا في بقاياه. وسألت القنصل عن حال البيت عندما كانت تقيم فيه الليدى جوردون. وتأكدت أن أهالي الأقصر لا يذكرون من سكنه من العلماء أمثال: شامبليون و روسيليني وويلكنسون. لكنهم يحتفظون بذكرى ليدى لوسى جوردون في أعماق قلوبهم مصحوبة بالحسرة وبالدعوات !

فى ظهر اليوم التالي. عبروا النهر ثم ركبوا الحمير لزيارة مدينة "هابو" و"الرمسيوم".. وحرصت على تناول كل مشاهداتها بالوصف الأثري الدقيق.. ودعاهم " أرمنت بك" حاكم المدينة لزيارة قصره وحدائقه. وكان يملك مصنعًا للسكر ويختًا خاصًا. يتحدث فقط التركية والعربية. وتميز باللباقة والمجاملة خلال أمسية جميلة.

وكان وصولهم إلى "إسنا" في يوم انعقاد السوق أيضًا. وحرصت كعادتها على الوصف المعماري والأثري للمعبد. ومقارنته بمعبدي

"دندرة" و "الأقصر".. وبينما كانت الشمس تشرق من الأفق الشرقي، كانت إميليا منهمكة في رسم رواق المعبد حتى نسيت طعامها، بعد أن جاوزت الساعة الرابعة، فأتى "سلام" أحد البحارة الأصدقاء على الطعام جميعه بشهية قضت على "أربعة أرغفة وكفتة مشوية ونصف رطل من التمر" !.. ثم توجهوا لزيارة "معبد إدفو" ثم "معبد كوم أمبو" ويشتد السباق بين الدهبيات الثلاث من أجل الوصول إلى أسوان.

وتبدي دهشتها مما يعرض للبيع في أسوان.. فلا تعرض الجعارين أو تماثيل الآلهة، وإنما تعرض أشياء "حاضر ساذج" : بيض و ريش نعام وحلي فضية نوبية ورماح وأساور عاجية وسلال مجدولة وخزامات الأنف وأمشاط من العظم وطواقٍ ملونةٌ وزجاجات كحل (مكاحل) وبعض المصنوعات الجلدية مثل الأحزمة النوبية المعطرة !

ثم تأخذنا إميليا إلى "جزيرة الفنتين" أو "آبو" أو جزيرة الخزائن (خزائن الذهب النوبي وأنياب الفيل).. وتكتب انطباعاتها حول الجزيرة: "إنها جزيرة رائعة الجمال، مرتفعة من الناحية الجنوبية، منخفضة وخصبة من الشمال مع ساحل متميز مليء بالجداول الكثيرة الشجر.. لا يسكنها إلا النوبيون وتضم قريتين نوبيتين وأطلال مدينة قديمة كانت عاصمة لمصر في عصر الأسرة السادسة.. وفي قلب الجزيرة تنتشر مزارع النخيل بكثافة، وحقول القطن والخروع والعدس والذرة، وتنتشر غابات النخيل على الساحل الغربي فيما يعرف بجزيرة الزهور"..

ثم عادت إلى أسوان، وقامت مع رفاقها بجولة في سوق المدينة، وقد

ابتاعوا بعضًا من السلال والأطباق النوبية. (وأشارت إلى وجود عينات منها بالمتحف البريطاني) ولفت نظرها أفراد من قبائل البشارية ومن قبائل العبابدة. وأحباش. وتجار من أقاليم السودان. وتجاراتهم تتنوع ما بين ريش النعام وجلود الأسود والفهود وأنياب الفيل وبالات القطن والصمغ العربي.. وأفاضت في الحديث عن فضائل الجمل وأساليب ترويضه و ركوبه..

ثم تتوجه إلى الشلال الأول ومعهم "شيخ الشلال.. نوبي كهل ذو عينين كعيون الأسماك !".. وأشارت إلى قوة اندفاع المياه وغرابة أشكال الصخور ووحشة وروعة المنظر الطبيعي وجماله يفوق الخيال.

وقضت إميليا أسبوعًا كاملًا في جزيرة "فيلة"(٥)* مما سمح لها باستكشاف معالم هذه الجزيرة الرائعة "الجزيرة المقدسة". وقد وصلت إليها عبر النهر في طرفها الجنوبي وحيث يوجد مرسى فخم ينحدر بمدرج

إلى النهر.. ويسيرون بمحاذاة ضفة النهر المنحدرة ثم يصعدون فينفتح أمام أعينهم "منظر عجيب" فناء فسيح يقود إلى صروح معبد "عرش فرعون" العظيم. وهو المعبد الذي طالما اجتذب الفنانين الأوروبيين لتصويره بالريشة والكاميرا. وعلى كلا جانبيه رواق من الأعمدة.. وتماثيل منحوتة برشاقة كاملة وتناسب رائع. والمعبد مخصص للآلهة إيزيس ولذكرى أوزوريس ولعبادة ابنهما حورس.

٥- الأديب والرحالة الفرنسي الشهير "بيير لوتى" عضو الأكاديمية الفرنسية. كان أعظم من وصف جزيرة فيلة ومعابدها. وقد شغف بها حبًا. وأبدى خشيته من غرقها نتيجة المشروع الإنجليزي بإقامة خزان أسوان !.. واتخذ من غرق "لؤلؤة مصر" وإحدى عجائب الدنيا رمزًا لموت مصر القديمة..
راجع : Luti, Pierre: La Mort de Philae, Calmann-Levy, Paris, ١٩٠٨

وتشير إلى زيارة الرحالة الأشهر "بوركهارت" إلى الجزيرة والمعبد عام ١٨١٣ وتسرد بتفصيل تاريخ "فيلة" وتعنى بالوصف الآثري لأبواب وقاعات المعبد والغرف الجانبية والجدران المغطاة بالنقوش البارزة والممرات السرية ومذابح الهيكل، وكان من الصعب عليها العثور على "الحجرة السرية المقدسة" لأوزوريس ! (٦)*

وتتطلع إميليا إلى غروب الشمس لآخر مرة من فوق سقف معبد إيزيس ثم تناجي نفسها في أسًى: "العزلة هنا تامة. وسكون سحري يخيم على المكان. إني أنصت وأعد نفسي لأتذكر ذلك كله في السنوات المقبلة. تلك التلال الوردية الجليلة ومجموعات الأعمدة ومساحات الظلال الساكنة وأجمات النخيل" وظلت شاردة في أثناء هذا الحلم الأسطوري – لأجمل المعالم الأرضية في العالم – ثم استدارت لتأخذ طريق العودة وقلبها مفعم بالخوف خشية ألا تشهد هذا المنظر مرة أخرى في حياتها !

٦- لمزيد من التفاصيل عن شواهد أمجاد الفراعنة في النوبة. فيما يخص كتابات الرحالة الأجانب. راجع :

Ampere, J. : Voyage en Egypte et en Nubie, Paris, ١٨٨١

Du Camp, Maxime: Le Nil, Egypte et Nubie, Paris, ١٨٥٤

الخاتون : جيرترود بل..!

مع بدايات القرن التاسع عشر، بدأت الحكومات الأوروبية، في إرسال الرحالة والمستكشفين إلى المشرق العربي والإسلامي بذرائع مختلفة، غير أن معظمهم كانوا في واقع الأمر: جواسيس.. تركز نشاطهم على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والطائفية، والقبلية، وإيجاد الوسائل المناسبة لاستعمارها وتحقيق أهدافهم.

وتندرج رحلات "جيرترود لوثيان بل" ضمن هذه النوعية من الرحلات، وتعد "جيرترود" من أهم الشخصيات البريطانية التي أسهمت بفعالية في صنع الخريطة السياسية والجغرافية للمنطقة العربية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، وفي تطبيقها معاهدة "سايكس – بيكو" التي تم بموجبها اقتسام البلاد العربية بين إنجلترا وفرنسا وإقامة بعض العروش العربية !

ولدت "جيرترود بل" في عائلة بريطانية أرستقراطية في ١٤ يوليو ١٨٦٨م بعد أن أتمت تعليمها المدرسي في لندن، التحقت بجامعة

أكسفورد لدراسة التاريخ وكانت الأولى على دفعتها..[1]*

تعلمت "بل" اللغة الفارسية وزارت إيران عام ١٨٩٢ حيث كان عمها سفيرًا في طهران. وخلال الأعوام ١٨٩٧ – ١٨٩٩ قامت برحلات استكشافية في أوروبا، ثم توجهت إلى الاهتمام بالحياة العربية وتعلم اللغة العربية. فكانت زيارتها الأولى للقدس في نهاية عام ١٨٩٩م ثم توالت رحلاتها في جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر والعراق وتركيا..

ومن آثارها العلمية: تقديم كتاب "سفر نامه" وترجمته عام ١٨٩٤م، ثم ترجمة لبعض أشعار حافظ الشيرازي عام ١٨٩٧، وكتاب "الصحراء والمعمورة" عام ١٩٠٧م عن رحلاتها في فلسطين وسوريا، وكتاب "ألف كنيسة وكنيسة" عام ١٩٠٩م وضمنت نشاطها السياسي في تقرير ضخم عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والعشائرية في بلاد بين النهرين خلال الفترة ١٩١٤ – ١٩٢٠ وتركت جيرترود أكثر من ١٦٠٠ رسالة وبلغت يومياتها ١٦ مجلدًا بالإضافة إلى ٧ آلاف صورة، ونشرت رسائلها عن فلسطين وسوريا والعراق والأردن وشمال الجزيرة العربية خلال الأعوام ١٨٩٩ – ١٩٢٦ في مجلدين، وحرصت في رسائلها أن تؤرخ وتسجل كل ما حدث لها. فكانت على أوثق صلة مع عائلتها وأصدقائها في وطنها. وسواء كانت رسائلها تحكي مغامرة مثيرة أو تصف حفل عشاء، فقد تميزت في كتاباتها

١- لمزيد من التفاصيل عن "جيرترود بل" وسيرتها وآثارها العلمية ورسائلها. راجع: "جيرترود بل – ملكة الصحراء غير المتوجة" هـ. ف. ونستون، دار برزان للنشر، بيروت، ٢٠٠٨م. و"رسائل جيرترود بل – فلسطين، الأردن، سوريا وحائل" ترجمة: رزق الله بطرس، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠٠٨م. و"الصحراء والمعمورة" ترجمة : عادل زكار، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٤م. و"قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج ١٧٦٢-١٩٥٠" سمير عطا الله، دار الساقي، بيروت، ط.أولى، ١٩٩٤.

بالتنوع والذكاء والأسلوب السهل الساحر المبهج !

تلقبت "جيرترود" بأسماء وصفات عديدة بين أصدقائها شيوخ العرب منها: "أم المؤمنين" و"ملكة الصحراء"..وأشهرها "الخاتون" اسم عراقي المنشأ ترجمه البريطانيون بـ"السيدة المبجلة" و "سيدة البلاط" كما أطلق عليها "الست" !

ووصفها الرحالة "أمين الريحاني" فكتب: "العراقيون يسمونها الخاتون -أي سيدة البلاط التي تعنى بخير الدولة وازدهارها- وقد وجدت في الآنسة "بل" موهبتين آخريين: لسانها وعقلها، إن مظهرها إنجليزي تمامًا، طويلة، ناحلة، أرستقراطية الملامح، شعرها الفضي المتناسق مع لون بشرتها المائل إلى اللون الزهري.. إنها تملك ناصية الحديث وتتحدث العربية دون لكنة تقريبًا، تخلطها بشيء من الإنجليزية وبإشارات من يديها زيادة في التأكيد، لقد أذهلتني طاقتها وسرعة الحركة لديها" !

في السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها، تركز نشاطها في البحث والتنقيب عن الكنوز الأثرية والحضارية لبلاد الرافدين وأنفقت من مالها الخاص، حتى شيدت أول متحف في العراق، والذي ضم مقتنيات تعود إلى خمسة آلاف عام.. واجتاح الجيش الأمريكي بغداد عام ٢٠٠٣ بدعم من الصهيونية العالمية – أعداء الإنسانية والحضارة – و دمر المتحف ونهب الأمريكان كنوزه، التي هي ملك الإنسانية !.. وربما وطئت أحذيتهم قبرها وهي التي كتبت في رسالة إلى والدها السير "هيج بل" ومن بغداد في مارس ١٩١٧ : " إنني واثقة، أننا سوف نجعلها مركزًا للحضارة العربية والازدهار" !!

بين رمال السياسة.. المتحركة!

خلال صيف عام ١٩١٤، تسارعت وتيرة الأحداث في المنطقة، مع تصاعد ما عُرف بـ"الثورة العربية" ثم أحداث الحرب العالمية الأولى، وإعادة الخريطة السياسية للمنطقة العربية في أعقاب الحرب لصالح أطماع القوى الكبرى، خاصة إنجلترا وفرنسا..

وشاركت "جيرترود بل" في رسم السياسة البريطانية التي سادت المنطقة خلال تلك الفترة وبقيت آثارها حتى يومنا هذا.. وصلت "بل" إلى القاهرة للمرة الأولى على متن إحدى السفن الحربية للأسطول البريطاني وقدمت إلى الكولونيل "جيلبرت كلايتون" مدير الاستخبارات المدنية والعسكرية بالقاهرة تقاريرها الاستخباراتية، وتم تشكيل "مكتب القاهرة" لتنسيق النشاطات البريطانية ووزارة المستعمرات والأدميرالية البحرية ومكاتب الاستخبارات العسكرية في شمال شرق الجزيرة العربية والبصرة والكويت والهند..

في ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٥م، كانت "بل" على ظهر سفينة سياحية تمخر صاعدة في النيل، وكان الأمر قد صدر بتعيينها "أول ضابطة استخبارات" وكتبت: "بدأت أشعر أنني أصبحت ضابطة، يا للسخرية، أليس كذلك ؟.. لقد منحت مرتين شرف ميجور من الدرجة الثانية في الجيش" !..

وعلى متن تلك "الدهبية" كتبت "جيرترود": " مسكين ذلك النيل العظيم الذي شهد عبر آلاف السنين مواكب الآلهة وفراعنة مصر وملوكها.. تجثم عليه بواخر شركة كوك !.. والتي تحجب إعلاناتها وراءها جمال النخيل.. مشهد الفلاحين والنساء يملأن الجرار

والمواشي تستحم على هواها، والشريط الأخضر الممتد والسواقي.. كلها تتعاقب على الصورة نفسها في زمن الفراعنة..".

وأحسب لولا أعباء مسؤولياتها وانشغالها الدائم بعملها الاستخباراتي، لتركت "بل" انطباعات أكثر من رائعة عن البانوراما المصرية الفريدة، حيث كتبت : "لو سألني أحد عن البلد الذي أمتعني أكثر.. سأقول في الحال : مصر، ففيها وجدت مجتمعًا يختلف تمامًا عن مجتمع الجزيرة العربية.. بل يختلف تمامًا عن مجتمعنا في لندن، فالحكومة والدين والناس كلها جديدة علينا " !.. وتضيف : "إن غروب الشمس في مصر يستحق وحده رحلة إلى مصر أكثر من الأهرامات" !

تنقلت "بل" ما بين القاهرة وشمال جزيرة العرب والهند ولندن، لكنها كانت تتطلع دائمًا للعودة إلى القاهرة ولقاء "النخبة الذين انسجمت معهم "في فندق "جراند كونتيننتال" بميدان الأوبرا الخديوية، وكانت "بل" تحظى بدعم "ونستون تشرشل" وزير المستعمرات آنذاك في إطار تكليفها بمهمات خاصة رسمت مستقبل العالم العربي.. وكان من أبرز ضباط هؤلاء "النخبة" الأسطورة : لورانس العرب، واللورد كرومر.. كما شهدت فنادق "سافوى" و "شبرد" و "مينا هاوس" [(٢)*] - والذي أطلق عليه في فترة الحرب العالمية الثانية "وكر

٢- كان هذا الفندق في الأصل – استراحة – للخديو إسماعيل وضيوفه، شيدت أبان الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، ثم خصصت لكبار الزوار، وفي العقد الثامن، اشتراه مستر "فردريك هيد" وأطلق عليه اسم "مينا" وأضاف إليه عدة غرف وقاعات، وعقب وفاته اشتراه مستر "لوك كينج" وقرينته وأطلقا عليه "مينا هاوس" والذي شهد الكثير من الشخصيات العالمية البارزة من ملوك و رؤساء ورحالة وفنانين.

الجواسيس" ! – جانبًا من لقاءات "بل" و "النخبة" من الجنرالات وضباط المخابرات البريطانية..

في فبراير عام ١٩٢١ ومن شرفة "مينا هاوس" المطلة على الأهرامات وأبي الهول، كتبت "جيرترود": " ليلة صافية بالغة الشفافية تومض بألوان لا ينبض بها مناخنا. تغشى موقعًا سحريًا يكتنفه الغموض، يتوهج فيها القمر بلونه الفضي فيحرك فينا الانبهار ويضيء عالمًا لم يعد من عالمنا. رموز وشواهد مجد عملاقة تنتصب تحت نجوم منتصف الليل.. أي روعة متخيلة تعكس إشعاعات من ضوء القمر على وجه أبي الهول، فتكشف بهاء هذا الوجه الرهيب وتضفي عليه مزيدًا من الجلال" !.. كانت "جيرترود" في تلك الليالي القمرية وهي تتأمل تلك العظمة الرهيبة "أن تجلو ذلك السر الصامت واللغز الخالد" !

وبالقرب من النيل، كتبت: " ما أروع النيل في ليل القاهرة، على ضفتيه تتناثر قصور تحيط بها حدائق رائعة ورياض نخيل وبساتين مثمرة، وترتفع قباب ومآذن وأبراج كنائس.. وعلى صفحته تنتشر صواري المراكب ودهبيات الباشوات والأمراء".

وكم كانت تتمنى أن تندمج في مشاهد الحياة في القاهرة، وفي الأوقات التي تخلو من اللقاءات الاستخبارية، كانت تسجل انطباعات سريعة، فكتبت عن "مينا هاوس أوتيل" : "الفندق بطرازه المعمارى مزيج من التصميمات الشرقية والعمارة الأوروبية. الأثاثات شرقية وغربية – أرابيسك وأوبيسون – وحدائقه كأنها بسحرها هبطت من السماء، هناك بقايا ملامح رقى إنجليزي وأناقة فرنسية لا تخفى عن العين في بريق حلم يذكرنا بالأيام الخوالي"!

وتسرع إلى تسجيل ملاحظاتها عن مشاهد متنوعة أمام واجهة "شبرد". فكتبت: " تتزاحم العربات والمكارية أمام مدخل شبرد أوتيل، وأيضًا أمام جراند أوتيل القريب. أجراس الحمير. والعمامات البيضاء والطرابيش الحمراء. ونساء محجبات.. عرب وأتراك ويونان وأرمن وسوريون ونوبيون. خليط من الأجناس البشرية يزاحمهم سياح من أوروبا وأمريكا.. وسياس يفسحون الطريق لعربات "الهوانم".. ومع هذه المناظر أرى هنا الفقر في – أبهى صورة – مغلفًا بالمشغولات الفضية والمصنوعات اليدوية السياحية" !

وكم تمنت وهي تطوف سريعًا بشوارع القاهرة. فتدون انطباعاتها بخيالها الخصب وتسجل واقع الحياة المصرية وهي التي برعت في تصنيف سمات وتقاليد القبائل العربية.. كما أبدت فزعها من طغيان مظاهر الحياة الأوروبية التي غزت قاهرة الشرق!

وينفريد بلاكمان
والناس في صعيد مصر

في عام ١٩٢٣، جاءت إلى مصر الكاتبة والباحثة الإنثروبولوجية البريطانية " وينفريد بلاكمان " وامتدت إقامتها ست سنوات، ستة أشهر في كل عام بين " صعايدة " مصر، ترصد عاداتهم ومعتقداتهم والنمط العام لحياتهم اليومية، ويمكننا أن نعُدَّ كتابها دراسة إنثروبولوجية ووصفًا لحياة سكان وادي النيل المحدثين، وقد حرصت على الابتعاد عن " اللغة الاصطلاحية ".. وقد أفادتها المنح التي قدمها صندوق: "بيرس سالدن التذكاري" و" الجمعية العلمية الملكية " و"قسم الإنثروبولوجيا " بجامعة أكسفورد.

تتبدأ كتابها " فلاحو صعيد مصر – The Fellahin Of Upper Egypt " [1]* بلمحة عامة عن جغرافية مصر، وأشارت إلى أن الشعوب التي غزت مصر من جهة الشمال الشرقي، لم يتركوا أثرًا واضحًا من الناحية الجسمانية على سكان الصعيد، فمعظم هؤلاء مازالوا يشبهون في ملامحهم قدماء المصريين، وتكتب " ومصر

١- وينفريد بلاكمان: الناس في صعيد مصر، ترجمة : أحمد محمود، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط. ثانية، ٢٠٠٠

هي أرض المتناقضات، والفرق واضح بين وادى النيل شديد الخصوبة، والصحراء الجرداء على جانبيه يلفت انتباه كل زائر لهذا البلد ".. وكانت " الفيوم " محطتها الأولى.. وتأخذها مناظر القرية المصرية، وهي تتلاحق من نافذة عربة القطار " تمثل القرية المصرية منظرا في غاية الروعة، تحيط بها غابات النخيل الشاسعة، كما يرتفع النخيل بين البيوت فيحميها من لهيب الشمس... وتعد أبراج الحمام أحد الملامح المعمارية البارزة في القرية.. وبيوت الفلاحين مجرد أكواخ مبنية من الطين المخلوط بالتبن، وتحتوي البيوت المشيدة بشكل أفضل على سلم داخلي يؤدي إلى الطابق العلوي، والسطح مكان لطيف للجلوس فيه ومتابعة الحياة في الأسفل "..

وتشير إلى أن الباعة الجائلين يعلنون عن بضاعتهم بنداءات مميزة " ومن لا يعرفها يظن أنها غناء شجي " !.. وغالبا ما تزين أبواب البيوت بصحن أو بطبق فنجان صيني يثبت أعلى عقد الباب ليكون بمثابة تعويذة لإبعاد الشر.. ولابد من وجود مسجد بكل قرية وربما أكثر من مسجد، وفي أغلب الأحيان توجد جبانة قديمة على أطراف القرية، وتنتشر الدكاكين المختلفة في الحارات الواسعة.. وأمام أكثر البيوت مقاعد من الطوب والطين تعرف بـ"المصاطب".. وتشير إلى أن " بحر يوسف " يمر بقرية أقامت فيها عدة مرات، ويعتقد أن لماء هذه الترعة قدرة على علاج التهابات العين والحمى وجلب الحظ !

في ذلك العصر، انتشرت الدعوة إلى تحرير المرأة المصرية، وتشير "وينفريد بلاكمان" إلى أن هذه الدعوة وجدت تأييدا واسعا بين سيدات الطبقة الراقية في مصر، وأكدت على أن الوضع الأدنى الذي

تحتلة الفلاحة المصرية في مجتمع القرية محصلة طبيعية لجهلها الأشد وطأة. وأن الفتاة الصغيرة تتمتع بحياة حرة تماما حتى تصل إلى سن الزواج، ويزداد احتجابها عقب الزواج بدرجات متفاوتة... وتشير إلى أن فطرة الفلاحين المصريين هي النظافة حيث يأمرهم الدين الإسلامي بالنظافة والتطهر..

وفي السنوات المتقدمة من العمر تتمتع المرأة بوضع مشرف في الأسرة، خاصة إذا كان لديها أولاد، ويعد حب الرجل واحترامه لأمه سمة مميزة بين المصريين.

وتوفر حلي الفلاحات المصريات البسيطة والوشم : مادة فصل شيق في دراسة هؤلاء الناس كما كتبت وينفريد ... " ليست الفلاحة متخلفة بأي حال عن المرأة الإنجليزية العادية فيما يتعلق بسعيها إلى إبراز جاذبيتها الشخصية ".. ويعتبر الوشم من صور الزينة الشخصية لدى الجنسين من الفلاحين، وهي عملية مؤلمة جدا ويقوم بها متخصصون في هذا الفن، وغالبا ما تمارس هذه المهنة في سوق القرية، وفي أيام المولد.. ويدق الأقباط وشم الصليب على باطن الرسغ.. والشعر الطويل مما تتفاخر به المرأة المصرية، وعندما يبدأ الشيب في الظهور يلجأن إلى صبغ شعرهن بالحناء. وتشير إلى استخدام المرأة الطريقة المعروفة بـ " الحلاوة " لنزع الشعر وحتى تصبح بشرتها وردية ناعمة، كذلك حرص الفلاحات على استخدام الكحل، والعطور النفاذة.. وتبدي مخاوفها إذا اندثرت الملابس الوطنية : " سوف يختفي جزء كبير من جمال الريف إذا أصبحت الملابس الأوروبية هي الشائعة في القرية المصرية، فالملابس الوطنية أكثر صحية وراحة في مناخ وادي النيل الحار الجاف "..

وتخصص وينفريد فصلا للحديث عن الحمل والولادة، ودور القابلة، وعن قيام القابلة بإلقاء المشيمة في النيل وهي بشوشة مما يجعل الطفل يحيى سعيدًا، وتعاويذ حماية الطفل، وأن كل إنسان يولد ومعه قرين، والأقران يعكسون كل أفعال أشباههم من البشر بخيرها وشرها، وطقوس الأحتفال بالسبوع وحماية المولود من العين الشريرة.. وبالنسبة للأقباط، يتم تعميد الطفل إذا كان ذكرًا عندما يبلغ من العمر أربعين يوما، والأنثى ثمانين يوما، ولا ينبغي أن يتم التعميد خلال فترة الصوم الكبير أو أسبوع الآلام أو أسبوع الفصح.. وفي كل القرى المصرية يمكن رؤية عدد من الأطفال الذين حلقت رؤوسهم ماعدا بعض الخصلات، وفي حالة المسلمين، توهب الخصلة لأحد الأولياء، وبالنسبة للأقباط توهب لأحد القديسين، وتتم حلاقة الخصلة أمام الضريح المقصود، وبالنسبة للطفل القبطى تتم في الكنيسة التي تحمل اسم القديس، وتتم في المسجد وليمة _ الثريد واللحم المسلوق _ وينال الحلاق مكافأة كبيرة، ويوضع الشعر المقصوص في كرة من الطين وتدفق خارج الضريح، كما يقوم القس بعمل الحلاق وتقام صلاة خاصة في الكنيسة، ويهب الأب منحة مالية إلى الكنيسة، وتوزع اللحوم مع الخبز على الأصدقاء والفقراء.. كما تحدثت بالتفصيل عن عملية الختان والحجاب الذي يضعه الطفل المختون لمدة أسبوع والاحتفال بهذة المناسبة التي " تؤكد على انضمام الطفل إلى مجتمع الذكور " !

ثم أفردت " بلاكمان " فصلًا عن الزواج والطلاق، ويشيع زواج الفتيات في سن صغيرة، وقد تلجأ الأمهات إلى السحر و الحيل لجذب

العرسان.. وتشير إلى " الخطبة " وقراءة الفاتحة غالبًا ما يكون لها نفس قوة عقد الزواج. كما حكت عن مراسم الاحتفال بعقد القران، التي تنتهي بذهاب العروس إلى بيت زوجها. فتنتقل على جمل إذا كان زوجها يقيم في قرية أخرى، أو تركب حصانا إذا كان مقيما داخل القرية، في موكب صاخب بهيج. وصديقاتها الفتيات يقمن " بقرصها في فخذها " أملا في الحصول على زوج. وترتدي العروس ملابسها الجديدة لمدة سبعة أيام.

وتخصص فصلًا عن " طقوس الخصوبة " فحب الأطفال أحد السمات المميزة للمصريين المحدثين.. وقد قامت باقتناء ودراسة عدد هائل من التمائم والتعاويذ التي استخدمت كوسائل لضمان الإنجاب. وقد تذهب إحدى النساء إلى مقبرة مهجورة فتأخذ عظمة تخطو عليها أو تقفز فوقها. كما أن هناك اعتقادا في الطواف حول تمثال أو أحد الأعمدة في معبد. فلهذه الآثار قوى سحرية !.. أو أن تذهب إلى مقام أحد الأولياء التماسا للوسيلة والوعد بـ" نذر" إذا تحققت الأمنية الغالية.. وقد ساد اعتقاد بين نساء القرية أن "وينفريد.. تمتلك كثيرا من البركة" فيضعن أيديهم على رأسها. أو يمسكن بيدها فيضعنها على صدورهن.. وشاهدت بعض طقوس الخصوبة. ومنها وضع قرص من العجين على بطن المرأة. يثبت فيه بشكل رأسي قلاحة ذرة مشتعلة (تسمى شمعة) ثم يوضع عليها قدر من الفخار، يضغط حتى ينغرس في قرص العجين. وسحب هذا القدر يحتاج إلى وقت وجهد. وبالطبع هذا الطقس شديد الخصوصية إلا أنه شائع ومنتشر !.. كما تستخدم حبوب لقاح النخيل

كتعويذة للخصوبة، حيث تخلط بالماء وتشربه المرأة التي ترغب في الحمل..

ووصفت وينفريد بعض الطرق المستخدمة لمنع الحمل، ومنها الاعتقاد في أن المرأة إذا أرادت منع الحمل لفترة محدودة، فإنها تأكل واحدة من بذور " الخروع " إذا أرادت ألا تحمل لمدة عام، واثنين اذا أردات ذلك لمدة عامين !.. كذلك تحدثت عن كتابة " الأعمال " للكيد والانتقام من " الضرة "!

كما تناولت الموت ومراسم الدفن وحضور " النائحات المحترفات" وحرصت على الإشارة بأن "الصراخ والنواح مخالف تماما لتعاليم الاسلام " ولابد من ذبح خروف أو جدي وتوزيع لحمه " حتى تغادر الروح البيت إلى الجنة " !.. وتحدثت عن صلاة الجنازة واستمرار الحداد لمدة سبعة أيام، وتوزيع الفطائر والفاكهة والنقود عند المقابر.. وبالنسبة للأقباط، تتم المراسم في الكنيسة، فيرفع الغطاء عن النعش، ويغطى الجثمان بقطعة من القماش الأبيض مخيط عليها صليب باللون الأخضر، وتوقد ست شمعات على كل جانب وواحدة عند الرأس وأخرى عند القدمين، وقد يستمر القداس لأكثر من ثلاث ساعات !

أيضا خصصت فصلًا عن " قانون الثأر " وقد شهدت عددًا من الصراعات بين عائلات تتبادل العداء، وتؤكد أن الثأر أكبر عائق في سبيل العدالة، بالرغم من تدخل الشرطة والمسؤولين، ومازال المجتمع المصري يعاني من هذة القضية وتداعياتها حتى يومنا هذا.

ثم تخصص فصلًا للحديث عن الصناعات القروية، وأشارت بأن صناعة الفخار من أكثر الصناعات شيوعا في مصر، والأساليب

المستخدمة فيها شديدة البساطة، وهناك نوعان من الفخار : اليدوي، والمصنوع باستخدام الدولاب، وتنتشر هذه الصناعة في أسيوط وقنا، وأكدت على أهمية الأساليب التي يتبعها صناع الفخار في مصر بالنسبة لعلم الآثار، وأفاضت في طريقة صناعة الفخار والمواد المستخدمة وأسلوب تجفيفه، وتشارك النساء في هذه الصناعة، كما يشاركن أيضا في صناعة أخرى هامة وهي : عمل السلال، وهناك أنواع معينة تتميز بها بعض القرى، وتصنع السلال من سعف وجريد النخيل، وأكثرها شيوعًا " المقاطف "و شرحت طريقة صنعها، وقد احتفظت بسلة من واحة الفرافرة، وتنتشر هذه الصناعة في الفيوم، كما يستخدم جريد النخيل في صناعة الأقفاص والأسرة " الحنجريب" والكراسي والطاولات الصغيرة، وتصنع الحبال من ليف النخيل، وفي عدد كبير من القرى ينتشر نسج الأقمشة الصوفية على الأنوال المنزلية، وكذلك السجاد والأكلمة.. ثم تطرقت إلى الحديث عن خبز " البتّاو " وطريقة صنعه..

وأشارت وينفريد إلى أن معظم القرى تقام بها سوق أسبوعية " وليس هناك مشهد أكثر حركة وحياة من سوق القرية " وحركة البيع تشمل : الأقمشة القطنية والأدوات المنزلية والحلي الرخيصة، وقصب السكر والبصل والطماطم والخضراوات.. ولكل طائفة مكان محدد : سوق للجمال، سوق للحوم والطيور، سوق لقصب السكر.. وسوق للجبن والسمن والبيض ولا يعمل فيه سوى النساء، وسوق للأواني الفخارية.. وينشط السمكري والإسكافي والأسواق الكبرى يتوافد إليها " عدد من الفنانين " كالحواة والسحرة ورواة السير

الشعبية وفرق الإنشاد الديني.

وعن طقوس الزراعة والحصاد، أشارت وينفريد إلى اعتماد الثروة والرفاهية في مصر دائما على ما تغله الأرض، والفلاحون - وأغلبهم أميون - يتميزون بأنهم مزارعون غاية في المهارة، وأساليب الزراعة بدائية جدا، وإن كانت الدولة تحاول الأخذ بالنظم الحديثة على ضفتي النهر، والمحراث البدائي مناسب وأكثر شيوعا، و ري الحقول عملية شاقة ويستخدم " الشادوف " البدائي أيضا لرفع المياه، والرجل القائم بهذا العمل يغني أغاني حزينة، هناك أيضا : الساقية والطنبور..

ويعمل الجميع، رجالًا ونساءً و أطفالًا، في موسم الحصاد، وقبل حصاد القمح، تقطف أفضل السنابل وتجدل معا فيما يعرف بـ "عروسة القمح " تستخدم كتعويذة تعلق أعلى باب الدار، وقد تعلق في مخزن الحبوب لضمان الخير والوفرة.. كما تقدم هدايا " بشائر" المحصول لفقراء القرية والحلاق ومؤذن وإمام المسجد وقراء القرآن الكريم، والنجار وشاعر الربابة..

ويتم درس المحصول باستخدام " النورج " وبعد عملية التذرية والغربلة يوضع في صوامع - من الطين أو السعف - أعلى المنازل.

ومن العادات المتبعة في صعيد مصر، أن يروى حقل الذرة عشر مرات، وفي المرة الأخيرة، يأتي صاحب الأرض بالفطير أو "المخروطة " باللبن، ثم يعتلي الساقية و يطلق النار من بندقيته وينادي على جيرانه لمشاركته الطعام مع أفراد أسرته، وبعد الانتهاء يقطف بعض كيزان الذرة ويضعها في صحن ويهديها إلى " ست الدار " ثم يقطف أربعة كيزان من الذرة ويثبتها على

جبهة الثور أو الجاموسة التي تدير الساقية، ثم تساق إلى البيت ليعرف كل من يراها أن ري حقل صاحبها قد انتهى وهو ما يعرف بـ " الفطامة ".. ويوضع بعض الخبز على أكوام الحبوب بعد تذريتها، ويعتقد أن هذا يجلب البركة والنماء للغلة، وعادات الحصاد وهذة المعتقدات ترجع مؤثراتها إلى عصر الفراعنة حيث الاعتقاد القديم في وجود آلهة للخصوبة والأرض !

وتخصص وينفريد فصلًا عن " السحر والسحرة " وكتبت أن مصر تشتهر بسحرتها منذ أقدم العصور، وقد وصلتنا حكايات عن أفعالهم العجيبة، ليس فقط من السجلات المصرية القديمة، فضلا عن الحكايات التي وردت في " ألف ليلة وليلة ".. وغفلت عن حكاية " سحرة فرعون " مع النبي موسى - عليه السلام - في القرآن الكريم.. وتضيف وينفريد " ويكثر السحرة في مصر الحديثة، وفي كل قرية ساحر أو اثنان، ويعتقد أن لديهم القوة نفسها التي كانت لدى أسلافهم في مصر القديمة والعصور الوسطى ".*(٢)

وأحيانا تتخطى شهرة الساحر حدود قريته، والقرويون يخشون

٢ - وينفريد بلاكمان : أفرد المستشرق البريطاني إدوارد لين فصلاً بعنوان : "السحر والتنجيم والكيمياء" وكتب "لو كنا نصدق بعض القصص والروايات الشائعة في مصر لخلصنا إلى القول أن في مصر الحديثة اليوم سحرة يضاهون حكماء فرعون وسحرته براعة" وأن السحر الروحاني الذي يعتبره المصريون سحرًا حقيقيًا ينقسم إلى نوعين : "العلوي" ويوصف بالرحماني، و "السفلي" ويوصف بالشيطاني، والأول محوره الله وملائكته والجن الصالحون، وترتبط كتابة التعاويذ بأغراض طيبة وبعلم التنجيم وأسرار الأرقام سعيًا للوصول إلى اسم الله الأعظم، ووسطاء السفلي : الشيطان والجن والأشرار وأغراضه شريرة، وأشار إلى انتشار علم التنجيم في مصر ويختص بمعرفة الطوالع وتحديد الفترات الأوفر حظًا في حياة الإنسان والبروج الفلكية التي تؤثر فيه.. ولمزيد من التفاصيل، راجع : إدوارد لين "المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم" ترجمة : عدلي طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٠.

الساحر بسبب معرفته بالأعمال والتعاويذ التي يمكن استخدامها في الشر، وقد تستخدم في الخير.. وقد تعرفت وينفريد على عدد من السحرة والساحرات وشهدت بعض من جلساتهم وطقوسهم، وكان من أصدقائها ساحران أحدهما قبطي والآخر مسلم وكلاهما على قدر من المهارة ويتمتعان بشهرة واسعة وقد حدثاها عن التمائم والأحجبة التي يستخدمانها في المناسبات المختلفة، كما يستدعيان لإخراج كنز مدفون في باطن الأرض !.. وتنتشر الحكايات في الريف عن هذه الكنوز !.. " ومن عادة أهل الريف - حتى الأثرياء - أن يخفوا أموالهم تحت الأرض" !.. وإطلاق البخور - خاصة المغربي - أساسي في هذه الطقوس، وقد أفاضت في الحديث - وبالتفصيل - عن السحر الأسود وأنواعه، ووصفات الشيوخ لعلاج : الحمى والتهاب العيون والصداع وانتفاخ المعدة والروماتيزم وتعثر المخاض.. ويقوم حلاق القرية بدور الجراح فيما يتعلق بالعمليات الصغرى مثل فصد الدم وكي الجروح.. ويشترك المسلمون والأقباط في الاعتقاد بأن " العفاريت تلبس الإنسان " وأن هؤلاء السحرة قادرون بوسائلهم الخاصة على "العلاج المدهش لأشخاص تلبسهم العفاريت "!*

أفاضت "وينفريد" في الحديث عن الاحتفال السنوى بذكرى "المولد النبوى" والاحتفال بموالد الأولياء والقديسين، وبشهر رمضان*[٣]، والعيد الصغير والعيد الكبير والحرص على زيارة المقابر، ويوم شم النسيم وسبت النور وأحد السعف وعيد الغطاس..

وتخصص وينفريد فصلًا للحديث عن اعتقاد المصريين في

٣- رمضان في الزمان الجميل، كتاب الجمهورية، ديسمبر ١٩٩٩.

الأولياء والقديسين الذين تُنصب لهم قدرات إعجازية "وقد أصبحت الطقوس الخاصة بهم جزءًا من الديانة الشعبية العامة".. فلا حصر ولا نهاية للموالد والأولياء والقديسين في ربوع مصر المحروسة*(٤). ولا حد لقصص المعجزات التي تروى عن كل ولي وقديس. وأضرحة الأولياء التي تنتشر في مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية هي مراكز لإقامة الموالد للمريدين والمحبين. ويمكننا القول أنه من الصعب أن تجد يومًا – على مدار السنة – ليس فيه احتفال بمولد ولي أو قديس في مكان ما بمصر!

وتشير وينفريد إلى أن التكريم الذي يحظى به الولي أو القديس يكون أكبر عقب وفاته. وقد جرت العادة بين المسلمين أن يشيد على قبر الولي ضريح مطلي بالجير تعلوه قبة وتزين الجدران الداخلية بالنقوش وآيات من القرآن. وفي بعض الأحيان يكون هناك حجر أو كومة من الأحجار أو شجرة أو مجموعة أشجار تشير إلى المثوى الأخير للشيخ الراحل. وعادة لا يُبنى الضريح إلا إذا ظهر الشيخ أو الولي لواحد من مريديه – في الحلم – وطلب منه إقامة هذا الضريح!

وتشكل الشموع "قربانًا" مفضلا . بالإضافة إلى هدايا النذور التي تُعلق على حبل داخل الضريح. وتشمل الهدايا أساور زجاجية ملونة وخصلات من الشعر، ومناديل، وبشائر الغلة. وتفضل الزيارة في يومي الخميس والجمعة. وتتنوع التماسات الشفاعة ما بين طلب الشفاء لمريض وتحقيق أمنية الحمل أو النجاح أو الزواج وغيرها من "الأمنيات الشعبية" !

٤- راجع : عرفة عبده على "موالد مصر المحروسة". دار عين للدراسات والنشر. ١٩٩٧م.

والتبجيل الذي يبديه الناس لهؤلاء الأولياء والقديسين يعود إلى الفضائل والمعجزات التي تروى عنهم. والمكانة الرفيعة التي يضع فيها عامة الناس هؤلاء الأولياء : تحدد لهم مستوى معين من السلوك الذي يوفر لهم مثلًا أعلى للحياة. يفوق مجرد جمع للمال والنجاح المادى !

ويمنح لقب "مار" للقديسين الأقباط. وتشير وينفريد إلى أن كثير من المعتقدات والطقوس التي ترتبط بهؤلاء القديسين تتشابه في أكثرها فيما يتعلق بالأولياء المسلمين.

لقد توراثت مصر عبر عصور تاريخية متصلة : الاحتفال بالأعياد الدينية والقومية. من خلال طقوس شعبية مصرية شديدة الخصوصية. حتى أصبحت تلك الاحتفالات جزءًا من وجدان الشعب المصري حتى يومنا هذا !..

ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت بأن المعتقد الشعبى يعترف للأولياء والقديسين بسلطان لا حدود له ويضفي عليهم من الصفات المعجزة الخارقة للطبيعة. ما لا يختلف كثيرًا عما نسبه الفراعنة والإغريق إلى آلهتهم. فهؤلاء الأقطاب والأولياء والقديسين يجسدون أحلام وآلام واحتياجات الإنسان المصري في مختلف العصور. ذلك الإنسان الذي يتمسك بموروثه الشعبي بوعي غريزي يصل به إلى جوهرة المكنون دون عناء أو تنظير فلسفي !

القاهرة.. في سنوات الحرب العالمية الثانية

دراما الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥ وما حفلت به من ضحايا بالملايين ودمار ومؤامرات سياسية، ومفارقات ومفاجآت من صنع الأحداث، توالت فصولها من القاهرة التي أدار منها الحلفاء مسرح العمليات الحربية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا..

عرضت الكاتبة البريطانية " أرتيميس كوبر " خريجة جامعة أكسفورد، وقامت بتدريس اللغة الإنجليزية بجامعة الأسكندرية، وعاشت في مصر وقائع الحرب العالمية الثانية وتداعياتها، ورصدت التحركات السياسية وتوجهات الرأي العام وغضب البريطانيون إزاء " غزل الملك فاروق مع المحور " وتدعيم صلته ليس فحسب مع المشاعر الوطنية المصرية " ولكن مع أعداء بريطانيا ذاتها "!

وأشارت الي أن " المجهود الحربي " أدى الي الحيلولة بين مصر وتصدير القطن – المحصول الرئيسي – وبالتالي زيادة الأسعار بشكل غير مسبوق بالإضافة إلي قيود تعتيم الأنوار التي كان يتم بمقتضاها طلاء المصابيح الأمامية للسيارات وفوانيس الشوارع، ورواج السوق السوداء في بضائع من مستودعات الجيش البريطاني وحلفائه: سجائر وسكاكين وأحذية وبطاطين ولوازم المستشفيات

الي الأسلحة... " المدفع الرشاش الأتوماتيكي الإيطالي كانت قيمته (١٥) جنيهًا مصريًا. بينما كانت قيمة البندقية الإنجليزية ثلاثة جنيهات مصرية " !

وتشير " كوبر " الي أن الحلفاء كانوا ينفقون ثلاثة ملايين جنيه إسترليني في مصر كل شهر، وبين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٣ ارتفعت ودائع المصارف من ٤٥ مليون إلى ١٢٠ مليون جنيه وأن " كل من كان يملك أسهمًا في شركة فنادق مصر (شبرد وسميراميس والكونتيننتال وغيرها) تضاعفت قيمة أسهمه. ولأن الواردات قد خفضت إلى حدها الأدنى فقد بدأت الصناعات المحلية في الازدهار " !

وحرصت " كوبر " على رصد تداعيات حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وتعقد العلاقة بين سراي عابدين والسفارة البريطانية في السادس عشر من فبراير، خرجت مصر كلها للاحتفال بعيد الميلاد الثاني والعشرين للملك فاروق كان واحدًا من أفخم الحشود على الإطلاق امتلأ ميدان عابدين ودوت هتافات التهاني للملك الشاب. بينما أصبحت مصر من الأسكندرية الي أبي سمبل مهرجانا لفاروق حافلًا بالرقص والغناء – والذبح – تأثر فاروق تأثرًا عميقًا. كان من المؤكد أن غروره في حاجة لمثل ذلك التشجيع. وألقى خطابًا في الإذاعة أعرب فيه عن امتنانه لشعبه. وبدأه كعادته بالتحية " شعبي المحبوب " وأشار في خطابه إلي قوة ومجد مصر، وانتهي بـ " شكرًا لحبكم لي ولالتفافكم حول شخصي "!

وتصف "كوبر" لقاء الملك فاروق وتشرشل في ٢٧ يناير ١٩٤٣ فكتبت: " مثل تشرشل بحضرة الملك فاروق وقال: إن الملك جورج

يدعوه لتناول الغداء مرة كل أسبوع في لندن، وتساءل ما إذا كان ملك مصر يتبع هذا التقليد مع رئيس وزرائه ؟.. فقطب فاروق جبينه وقال: هذا كان يمكن أن يكون مناسبًا للغاية لو كان رئيس وزرائه هو ونستون تشرشل ولكن مع الأسف فرئيس وزرائه هو النحاس ! " وأضافت بأن" كيلرن شعر بما يشبه الصدمة أن الملك كان يخاطب زائره البارز باسم تشرشل طيلة المقابلة دون أي ألقاب " !! وعندما سئل الملك عن انطباعه عن تشرشل قال : " إنجليزي سمين آخر " !!

الأسكندرية الإغريقية - المتوسطية:

خلال سنوات الحرب، قضت كوبر أكثر من عام بحكم عملها في الأسكندرية ودونت انطباعاتها عن " الأسكندرية الإغريقية – المتوسطية " التي تتمدد علي شاطئ البحر.. وكتبت: إنه عندما فرضت الحكومة المصرية قانون الطوارئ، وضعت الشواطئ المصرية جميعها تحت سيطرة ورقابة البحرية البريطانية، لكن الحكومة المصرية رفضت إعلان الحرب ضد ألمانيا " مما سبب حرجًا لدى "لامسون" وجنرالات القيادة البريطانية" !

وأشارت بأن قيود التعتيم كانت من أسباب القلق العميق لدى المصريين بأكثر من أي قيد آخر، وبينما كانت القطاعات الدنيا من المصريين يعملون كتبة وخدمًا وعمالًا في الترسانة البحرية، كانت الجاليات الأجنبية تتربع علي قمة المجتمع السكندري خاصة اليونان، الذين عاشوا في المدينة أجيالًا من بعد أجيال وأبرز عائلاتهم: سلفاجوس وزوفوداكس وبيناكس، وبرعوا في مجالات التجارة المربحة!

ثم جاء تدفق الجنود ليضيف شعوراً بالإثارة إلَي ما كانت تحتفل به الأسكندرية الكوزموبوليتيه من حيوية طبيعية. والبحر لم يكن بعيداً عن النظر من أي موقع وأضافت "كوبر" : "وتوزعت الأماكن الأنيقة مثل سيسل أوتيل وباسترودیس ويونان بار وسان ستيفانو ومونسنيور.. والذين لم يكن بوسعهم تحمل كلفة هذه الأماكن كانوا يستأجرون الكباين على شؤاطئ سبورتنج وستانلي وسيدي بشر، وبعض من أصحاب الثراء والنفوذ كانوا يستمتعون دون غيرهم بالجو المترف في نادي اليخت الملكي -[1]- " !

استطاعات الأسكندرية أن تلبي مطالب الذين افتقروا إلي المال أو الجاه " على الكورنيش كنت ترى أكشاكًا صغيرة بغير حصر تذهب إليها عائلات بأكملها لكي تحتسي البيرة وترقب المغنيات من رومانيا وألعاب الحواة " !

كثير من الشباب كانوا يفضلون تمضية الوقت في التمشية علي كورنيش الأسكندرية الساحر، وبوسع بعضهم أن يستقل القطار الي أبو قير حيث أكشاك خشبية صغيرة تنتشر علي الشاطئ "صيد اليوم الطازج " وأشارت بأن كلية فيكتوريا العتيدة تحولت إلى مستشفى لجرحى القوات البريطانية، بينما وضع كل من نادي الأسطول بحديقته الرائعة، ونادي جاك يونيون حيث طاولات البلياردو والحمامات المميزة. تحت تصرف البحرية الملكية.. " ومن قصر المنتزة

١- عن تخطيط الأسكندرية في عصر الملكية. أحيائها وميادينها وشوارعها وحدائقها وانديتها راجع: ا.م. فورستر " الأسكندرية : تاريخ ودليل " ترجمة حسن بيومى، المشروع القومى للترجمة. القاهرة، ١٩٩٩. راجع ايضا فصل " الأسكندرية في القرن التاسع عشر " من كتاب " الأسكندرية في عصرها الذهبي " عرفة عبده علي، كتاب الهلال، عدد ٧٧٤، سبتمبر ٢٠١٥.

إلى قصر رأس التين مرورًا بالفيلات البيضاء القابعة خلف الأشجار الباسقة بطول شريط الترام، إلى جانب محلات الحلوى والمقاهي والمطاعم وبورصة القطن والكنائس وميدان المنشية ومحطة الرمل.. ستظل الأسكندرية قابعة في أعماق الحلم المشترك " !

وبالرغم من تواصل الغارات على الميناء ومطار الدخلية، يسبقها " عواء " صفارات الإنذار.. " إلا أن الحياة البهيجة والبعيدة أحيانا عن الواقع التي عاشتها الأسكندرية ظلت متواصلة برغم الحرب وتداعياتها "!

" عاصمة الملك فاروق " !

كتبت كوبر أن "زوار عاصمة الملك فاروق كانوا يجدون ما يتطلعون إليه في القاهرة التي كانت راضية للغاية بالحمير في شوارعها والباعة الجائلين يجوبون الشوارع والبازارات والمقاهي التي كانت تتوافق جميعًا مع صخب الحياة في الشارع العربي، في حين أن الطبقة الوسطى من المصريين كانت أقرب روحًا إلى الريف الفرنسي وكان الإلمام بالثقافة الفرنسية أمرًا لا غنى عنه لكل من يتطلع إلى حياة أفضل "!

وأشارت إلى أن القاهرة شأنها شأن المدن التجارية الأخرى الكبرى في الشرق مثل دمشق وحلب وإسطنبول.. تضم جاليات وطوائف مختلفة من المسلمين والأقباط واليهود والمسيحيين الشوام، إلى جانب المهاجرين من فرنسا وإيطاليا ومالطة وقبرص واليونان، كلهم يمارسون التجارة عبر تناول فناجين لا حصر لها من القهوة... وأكدت "كوبر" أن من سمات المجتمع المصري " ومن حسن الخلق أن يقدم

المسلم التهاني إلى أصدقائه المسيحيين في عيدي الميلاد والقيامة. وبالمثل كان يتلقى منهم التهاني في الأعياد الإسلامية ورأس السنة الهجرية وفي مولد النبي ".. وكتبت أن المجتمع المصري لم يشهد شيئًا من التمييز العرقي أو التفرقة الدينية.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرته " كوبر " من أن البنوك والمحلات الكبرى في أفخر أحياء المدينة كانت تميل إلى تعيين الموظفين من ذوي الأصول الأوروبية في حين أن الشابات الأوروبيات كن يعملن بائعات في المحلات وسكرتيرات، وكانت عائلاتهن تعيش في مستوى أفضل بكثير في مصر من المستوى الذي تستطيع العيش فيه في أوروبا ذاتها.. وكانت معظم الأسر تتعلم في المدارس الفرنسية والإيطالية والأمريكية التي تنتشر في البلاد.. " وفيما عدا كلية فيكتوريا في الأسكندرية ومدرسة الجزيرة التحضيرية في القاهرة فقد أهمل البريطانيون التعليم في مصر وتلك سياسة بدأها لورد كرومر الذي كان يرفض تمامًا التعليم على أساس أن قليلًا من التعليم أمر محفوف بالخطر"!

وتحدثت كوبر بشيء من التفصيل عن كبرى العائلات القبطية في مصر وكانوا من ملّاك الأراضي والسياسيين وأشهرهم عائلات: ويصا ووهبة وغالي وخياط.. وكان شبابهم نجوم مجتمع الصفوة القبطية وتميزت العائلات بالكرم و" حب دافئ للحياة "..

كما تحدثت أيضًا عن صفوة اليهود المتمثلة في عائلات: قطاوي وموصيري ورولو وهراري وسوارس ومنشه.. وكانوا من كبار رجال المال والأعمال.. اندمجوا تمامًا في المجتمع المصري وتمتعوا بنفوذ اقتصادي وسياسي واجتماعي لا حد له !..

وتناولت أيضًا العائلات اليونانية التي بدأت هجرتها إلى مصر

خلال عصر محمد علي باشا. وتركز معظمهم في الأسكندرية. وأشهرهم عائلات: سلفاجوس وبينا تشيس وسرفود اكيس وورود وكانا كيس.. كما شمل مجتمع القاهرة أيضًا عائلات من المسيحيين الشوام، أشهرهم عائلة لطف الله وعائلة نمر.. د. فارس نمر مؤسس صحيفة المقطم وكان يعيش مع عائلته في حي المعادي وقد اقترنت كريمته " آني " بـ "والتر سمارت" أنشط مستشار شرقي بالسفارة البريطانية.. أما عائلة جورج وحبيب لطف الله فقد اشتهرت بالثراء الواسع حتي إنهم اشتروا سراي الجزيرة التي شيدها إسماعيل باشا لإقامة الإمبراطورة أوجيني خلال احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كما اشتهرت بالحفلات المتميزة الباذخة والتي كان يدعى إليها نجوم مجتمع القاهرة وزهراته!

ثم تنتقل بنا "كوبر" إلى " الميل المربع " على حد تعبيرها أو ما يعرف بـ " وسط البلد " حيث كانت حياة النخبة سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو التجاري.. وكتبت أن المركز التجاري للمدينة يقع بين ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليًا) وحدائق الأزبكية، منطقة حافلة بالشوارع العريضة التي تحفل بالمكاتب والعمارات السكنية وتزدان بالمحلات التجارية الكبرى الحديثة. أما الطرز المعمارية فقد تنوعت ما بين الطرز النمساوية والإيطالية والإسلامية والحديثة، بالإضافة إلى دور السينما والحانات والمقاهي..

وفي هذه المنطقة تنتشر المقار الرئيسية للبنوك ومكاتب الخطوط الجوية، ومحلات متخصصة في تقديم منتجات القارات الخمس !.. كما تناثرت بعض الأندية لكن عضويتها كانت فقط للراجل البريطانيين.

ثم نادي محمد علي الذي اقتصرت عضويته علي أمراء الأسرة المالكة. ونادي السيارات الملكي الذي كان المكان المفضل للملك فاروق.

جنوبي حدائق الأزبكية يتربع في عظمة "قصر عابدين" -(٢)- تحيط به شمالًا وشرقًا مكاتب الحاشية والأمناء وثكنات الحرس الملكي، بينما تميز حي عابدين بعدد كبير من المساجد والمدارس

ومتحف فؤاد الأول الصحي.. وإلى الغرب ناحية النيل تقع مباني البرلمان وقد تحلقت حوله عدد من مقار الوزارات.. ثم تحدثت عن حي قصر الدوبارة " حيث يقيم أغنى المصريين وبعض من أفراد الأسرة المالكة في قصور وفيلات فاخرة ".. وبالقرب منه حي "جاردن سيتي" المفضل لدي باشاوات المجتمع المصري، بينما كان البريطانيون يفضلون سكنى الزمالك !

وبعد الحديث عن السفارة البريطانية والتي كانت تمتد حديقتها حتي حافة النيل وقد شُيدت على "الطراز الكولونيالي ".. وفي أيام سير مايلز لامبسون " كانت نوافذها السامقة تزدان بستائر الحرير الدمشقي ما أضفى عليها مهابة انعكست بدورها علي المكاتب

٢- كانت عناية إسماعيل باشا بتشييد السرايات والقصور تفوق ما شيده أسلافه من الولاة والسلاطين، وكان أعظمها روعة وجلالًا " سراي عابدين التي شرع في تشييدها عام ١٨٦٩ م وانتهى منها عام ١٨٧٤ وقام بتصميمها المهندس " دى كوريل وروسو " مع مجموعة من الفنانين الايطاليين والفرنسيين والمصريين، حتى صارت واحدة من أعظم القصور الملكية في العالم.. خصص " السلاملك " للتشريفات، يؤدي إليه سلم من المرمر الإيطالي الفاخر، ازدانت أعمدته وجدرانه بنقوش مذهبة جميلة، الطابق الأول يشمل مكاتب التشريفات والأمناء وضباط الحرس ومخازن الفضيات ثم المتحف الحربي، والطابق الثاني يشمل الأجنحة الخاصة بالملك والملكة، وجناحًا لاستقبال الضيوف ثم قاعة العرش ومسرح السراي وقاعة المائدة الملكية الخاصة يليها قاعة مآدب المناسبات، ثم قاعة محمد علي الكبير، وقاعة للتدخين تطل على الحديقة الشتوية يقابلها قاعة الصالون الأبيض ثم القاعة البيزنطية ثم الجناح البلجيكي وهو أفخم أجنحة السرايات الملكية عامة !

والمقاعد التي جيء بها من الصين بالإضافة إلى مجموعة السجاد العجمي الفاخر " !

وتحدثت بشيء من التفصيل عن "شبرد أوتيل" -(٣)- الذي يلي الأهرام ذاتها في الشهرة بوصفه أحد أبرز المعالم السياحية في القاهرة؛ حيث كانت تتوافد إليه جموع المسافرين خلال رحلاتهم التي يجوبون فيها بلاد الشرق.. اشتهرت شرفته – الحافلة بكراسي وموائد الخيزران – بما كانت توفره من جلسة باذخة وارفة الظلال تطل على شارع إبراهيم باشا. وكتبت عن الرواق المغربي: " رواق تنساب فيه نسائم رقيقة ويسوده ضوء خفيف بفعل قبة من الزجاج الملون تعلو المكان. ويكفل جلوس مجموعات صغيرة مرتاحة في مقاعد وثيرة حول موائد ثمانية الشكل. مما يضفي شعورًا من الألفة والخصوصية الحميمة. قاعة الرقص كانت تزدان بأعمدة تعلوها زهرات اللوتس التي تحاكي مثيلاتها في معبد الكرنك " !

مجموعات من نزلاء "شبرد أوتيل" كانوا حريصين على أداء واجب يليق بأي زائر مثقف للمدينة في صحبة مدام " ديفون شاير " الفرنسية الخبيرة والعاشقة للآثار الإسلامية بالقاهرة..

وأشارت إلى متعة التردد على السينما؛ ومن روائع السينما العالمية التي أمكن مشاهدتها خلال عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١م في القاهرة: "ذهب مع الريح"، و" سيريناد برودواي"، و" إليزابيث وإسكس " و "ثورة على السفينة بونتي"..

وتأخذنا " كوبر " إلى "جروبي" الذي أسسته عائلة "ألكسندريان

٣- راجع الفصل الخاص بفنادق القاهرة من كتاب " " De Guerville A.B. : New Egypt
London , William Heinemann , MCMV

يويس" وكان معقلًا للشيكولاتة والسكريات، كما كان واحدًا من الأماكن الجميلة المتاحة للجميع، كان معظم زبائنه من الضباط. ومن المعروف أنه كان هناك اثنان من محلات جروبي: الأول في ميدان سليمان باشا، والثاني في شارع عدلي باشا ملحقًا به حديقة والموائد والكراسي الصغيرة صفت على أرضية من الحصى والرمل الأحمر. وأضافت: " كانت تلك الحديقة دائمًا حافلة بالرواد ويسود فيها جو من الألفة.. كان الباشاوات يأتون لتناول القهوة والكعك بالزبد، برفقة نساء من شرقي المتوسط تزدان أكتافهن بالفراء الفاخر" !

في المقدمة قاعة لتقديم القهوة والحلوى الغربية والشرقية وقد تتحول إلى صالون لبعض الشخصيات العامة وفي الخلف قاعة ذات سقف زجاجي تقدم فيها الطلبات من الساعة الخامسة حتي الساعة الثامنة ثم تبدأ السهرة في الساعة العاشرة.. كذلك كان واحة فاخرة لسيدات الطبقة الراقية اللاتي يأتين للراحة من التسوق!

وتأخذنا " كوبر" إلى صالون " ماري رياض" التي وصفتها بأنها واحدة من أغنى صاحبات الصالونات في القاهرة وأنجحهن [4] " كان

٤- عرفت القاهرة موضة " الصالونات الأدبية " مبكرًا، وبدأت في القصور الكبيرة، وكانت تقتصر في البداية على الرجال، فالحريم في " الحرملك " والرجال في " السلاملك ".. وكل من يؤرخ للحياة الفكرية في مصر الحديثة لا يمكنه أن يغفل تلك الصالونات الأدبية " الأرستقراطية " وصالون " البرنسيسة " كان جميع نجومه من الرجال.. نخبة من العقول التي حددت ملامح ذلك الجيل، كانت المرأة الوحيدة فيه الأميرة " نازلي هانم فاضل " ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا مما لا شك فيه أن صالون الأميرة نازلي هانم – بسراي والدها الأمير مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز - قد أسس ما يمكن أن نسميه "حزب المثقفين " والذي خرجت منه جميع الأحزاب والحركات السياسية الحديثة في مصر وضم صالون الأميرة صفوة المجتمع المصري في ذلك العصر، منهم " محمد شريف باشا " و " مصطفى رياض باشا " و " لطيف باشا

بيتها بشارع المنصور محمد بالزمالك يضم كثيرًا من الأشياء الجميلة والأثاثات والتحف الأوروبية، كان الجو السائد عالميًّا رفيع الثقافة ".

وماري رياض واسمها الأصلي " كافاديا " تزوجت عدة مرات، كان آخرهم ممدوح رياض باشا الذي كان مديرًا لأكبر مصانع تكرير السكر في مصر، وحفلاتها الباذخة كانت تغشاها النخبة من نجوم المجتمع بالإضافة إلى الفنانين والأدباء، فقد كانت تفضل صحبة هؤلاء على

سليم " و " عمر باشا لطفي " و " حسين رشدي باشا " بالإضافة إلى سلطان باشا وشاهين باشا وسعد زغلول " بك " وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوي ومحمد فريد وأحمد فتحي زغلول وإبراهيم المويلحي وأديب إسحاق والشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف.. ثم صالون " قوت القلوب الدمرداشية ".. الأديبة الأرستقراطية، التي ناضلت من أجل نيل المرأة حقوقها فحلقت بعيدًا عن أسوار الحريم.. كما كان صالون "مي زيادة" رائدًا وعلمًا في الحياة الأدبية والثقافية.. فقد كانت شاعرة وأديبة وخطيبة، أدركت دور الصالونات النسائية عندما كتبت عن صالونات باريس، وكان يختلف إلى صالون مي من أنصار الثقافة العربية، وأنصار الثقافة الأجنبية، وأنصار الجمع بينهما، مجددون ومقلدون، تباينت توجهاتهم الفكرية والأدبية، ومن هؤلاء الأعلام والمفكرين: طه حسين، أحمد لطفي السيد، مصطفى باشا عبدالرازق، ولي الدين يكن، أحمد شوقي، العقاد، منصور فهمي، حافظ إبراهيم، مصطفى صادق الرافعي، خليل مطران، داود بركات، أنطون جميل، شبلي شميل، محمد رشيد رضا، يعقوب صروف، محمد حسين هيكل، قليني فهمي، سلامة موسى، إبراهيم المازني، محمد حسين المرصفي، إسماعيل صبري، أحمد زكي، المطران دوريان، نجيب هواويني، الخطاط، سامي الشوا أمير الكمان، د. بنت الشاطئ.. واشتهر صالون الزعيمة هدى هانم.. صالونًا نسائيًّا فريدًا، سياسيًّا وأدبيًّا وفنيًّا، وكان يعقد في مساء كل ثلاثاء، كما كان يختلف إليه عدد من أقطاب السياسة والصحافة والأدب، إلى جانب بعض الشخصيات العالمية خلال زيارتهم للقاهرة، وعضوات الاتحاد النسائي الدولي، كما كان صالونها مقصدًا لكبار الشخصيات والزعماء والأدباء والمفكرين ومنهم: أحمد لطفي السيد، د.مصطفى عبدالرازق وزير الأوقاف وشيخ الأزهر، د.محمد حسين هيكل، أحمد شوقي، خليل مطران، جبرائيل تقلا صاحب الأهرام وأنطون الجميل رئيس التحرير العتيد وغيرهم... وكان لهذا الصالون فضل كبير في تشجيع كثير من الأدباء والفنانين التشكيليين، وأبرز الشخصيات النسائية اللاتي كن يترددن على صالونها : النابغة مي زيادة، استر فهمي، سيزا نبراوي، أسماء فهمي، لبيبة هاشم صاحبة مجلة "فتاة الشرق"، وباحثة البادية ملك حفني ناصف وغيرهن من فضليات نساء مصر.

صحبة البورجوازيين، وكانت تقرض الشعر وتضمر إعجابًا كبيرًا للشيوعية، بل كانت بين حين وآخر تشبك يديها تحية إلى ستالين وهي حركة كانت تبعث في أساورها الذهبية صليلًا لافتًا " !

كان "تشارلز جونستون" أحد مستشاري السفارة البريطانية، وواحدًا من نجوم حفلات وسهرات القاهرة الذي وصف نفسه بأنه يعيش وسط " حزام الأحبة " !.. في رسالة بعث بها إلى والديه وصف حفلًا ساهرًا في فيلا ماري رياض بالزمالك فكتب: ".. وتحتفل الجدران بلوحات إيطالية ورسومات للجياد، ومن نوافذ قاعة الرقص كان يمكن للمرء أن يطل على خيمة هائلة أعدت في حديقة الباشا من أجل السهرة، مضاءة بالشموع وتعلوها أبسطة حمراء وسوداء بنقوش رائعة، وفي زواياها وضعت موائد منخفضة ووسائد تتجمع حول حمام السباحة ونافورات تزيد المشهد جمالًا وروعة، كما أعدت أيضًا قاعة للطعام موصولة بالخيمة.. بدأ المشهد وكأنه خارج من بين سطور ألف ليلة وليلة.. المكان مزدحم بأكمله بوجوه المجتمع الإنجليزي – المصري الذي ازدهر خلال الحرب، ضابط الحرس وسلاح الفرسان، أميرات من أصل تركي، باشاوات من أثرياء الحرب، وبعض من الدبلوماسيين الأجانب، كلهم سعداء للغاية وجميعهم يعرفون بعضهم بعضًا حق المعرفة، والإنجليز والمصريون على أحسن وجه من التراضي بعد أحداث دقيقة وحساسة (أسلوب مستتر لتداعيات أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢) واحتوى المكان أيضًا أوركسترا من الدرجة الأولى " !

وتشير "كوبر" إلى أن القاهرة زمن الحرب كانت تعيش أيامها العظيمة، فقد كانت مركزًا للسياسة الدولية، ومكتب المندوب

السامي البريطاني هو محور كل البعثات الدبلوماسية البريطانية في الشرقين الأدنى والأوسط وكان مركز تموين الشرق الأوسط يتولى تنسيق الإمدادات من حلب إلى الخرطوم ومن دمشق إلى طرابلس وكل دولة أوروبية محتلة كان بها فرعها الوطني من الصليب الأحمر ومكتبها العسكري في مدينة القاهرة.. لم تتغير القاهرة كثيرًا. ففي نهار الصيف الحار بضوئه الصارخ، كان الصبية من ماسحي الأحذية وباعة الأمشاط يواصلون ملاحقاتهم للبشر، بينما ظل الرجل نفسه يقف أمام مقر قيادة الجيش البريطاني في القاهرة مناديًا : " شيكولاتة.. سجاير.. نياشين" !

وأشارت "كوبر" إلى أن القوات البريطانية في القاهرة توزعت على الثكنات العباسية ومعسكر الحلمية ومعسكر ألماظة ومعسكرات مصر الجديدة.. أما القوات الحليفة، فقد تمركز الهنود في منطقة مينا هاوس، ومن جنوب أفريقيا في حلوان، وجنود نيوزيلندا في معسكرهم بالمعادي.

وفي المنشآت العسكرية البريطانية " كان يوم العمل يبدأ في التاسعة صباحًا، وينتهي في الواحدة ظهرًا، بعد ذلك يتجه الضباط إلى نادي الجزيرة يلعبون التنس ويمارسون السباحة، ويعقب ذلك بوفيه مفتوح يحتشد بألوان الدجاج والفطائر ولحم البقر المحمر والمسلوق ولحم الخنزير وقطع الكستليتة " !.. وقد يذهب بعضهم إلى " سان جيمس " أو " لوبيتي كوان دي فرانس " أو " السكرابيه " أو ملهى "الكيت كات" الذي كان يحتشد بالجواسيس.. وراقصات جميلات أتين من لندن والمولان روج !

أيضًا تحدثت عن الضاحية الجميلة المتميزة التي شيدها البارون " امبان " شمال غربي المدينة، يميزها قصره الذي شيده على الطراز الهندوكي.. وإلى الجنوب ضاحية المعادي بفيلاتها الكبيرة تحف بها الحدائق الفسيحة البهيجة.. ولم تغفل الحديث عن أحياء: شبرا وبولاق والسيدة زينب - التي ضمت الطبقات الأدنى من أهل القاهرة - ولكنها تموج بالحياة والرواج والمقاهي والمحال الكبرى.. ثم حي الموسكي في الشمال الشرقي حيث الجامع الأزهر، أقدم جامعة إسلامية، وبالقرب منه بازار خان الخليلي الذي يجتذب دائمًا السائحين وأهل المدينة أنفسهم لشراء المسابح الثمينة ومقتنيات الفضة والمرمر والأبسطة والتوابل والعطور.. وخان الخليلي والجامعة الإسلامية يقعان بين باب الفتوح شمالًا وبوابة المتولي جنوبًا؛ وهما تحرسان ما تبقى من أعظم عاصمة شهدها العالم أبّان العصور الوسطى!

وتجدر الإشارة إلى ما دونته "كوبر" من تلخيص أو وصف عامٍّ لمصر في ذلك العصر: " إن وصف مصر ببلد عربي هو أمر يجعل الجد الأكبر محمد علي والخديو إسماعيل باشا يتقلبان في قبريهما فقد أخرجت جهودهما مصر من العرب وأفريقيا ومن الماضي... دفعت بها إلى أوروبا والحضارة الحديثة التي يشهد بها الذين عاشوا سنوات الحرب.. وكانت مصر بوتقة انصهر فيها المسلمون والأقباط واليهود والأرمن واليونان والشوام.. كانت مصر عالمية والقاهرة هي باريس أفريقيا" !

الكاتب

الكاتب والمؤرخ / عرفه عبده على

ـ عضو اتحاد الكتاب .

ـ نشر له العديد من الدراسات والمقالات بالصحف والدوريات المصرية والعربية .

ـ تخصص فى تاريخ اليهود فى مصر ، وتاريخ القاهرة ومعالمها، وأدب الرحلات .

ـ بدأ الكتابة عام ١٩٨٧ بنشر سلسلة دراسات تناولت الاختراق الفكرى الصهيونى للمجتمع المصرى وعصر الامتيازات الامريكيه، والكشف عن نشاط المركز الاكاديمى الاسرائيلى بالقاهرة ... وبضغط من مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلى أجبر على تقديم استقالته من المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .. و وضع علـى قائمة " الموساد " !! .. (روز اليوسف فى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٦) .

- مساعد مدير مكتبة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة - مدير مكتب كامل زهيري نقيب الصحفيين العرب والمصريين سابقاً

-مؤلفاته مراجع للمؤرخين الأجانب والباحثين المصريين والعرب.
كما عممت وزارة الخارجية مؤلفاته عن يهود مصر بالسفارات والقنصليات المصرية بالخارج.

*** أعماله:**

(١) **تهويد عقل مصر** . دار سينا للنشر . ١٩٨٩م (نشر أيضا حلقات مسلسله بجريدة الوطن الكويتية) .

(٢) **رحله فى زمان القاهرة** ، مكتبة مدبولى . ١٩٩٠ م .

(٣) **جيتو إسرائيلى فى القاهرة** ، مكتبة مدبولى . ١٩٩٠ م .

(٤) **وصف مصر بالصورة** ، دار الشروق . ١٩٩٣ م . رُشح لجائزة أحسن كتاب فى معرض فرانكفورت الدولى عام ١٩٩٦ . يعاد طبعه حاليا باللغات الانجليزية والفرنسيه والعربية .

(٥) **ملف اليهود فى مصر الحديثة** ، مكتبة مدبولى . ١٩٩٣ م (نشر أيضا حلقات بجريدة الشرق القطرية ـ ١٩٩٤).

(٦) **قراءة فى الفكر الإسرائيلى المعاصر** (حلقات مسلسلة بجريدة الشرق القطرية ١٩٩٤) .

(٧) **موالد مصر المحروسة** ، دار عين للدراسات . ١٩٩٧ م .

(٨) **يهود مصر .. بؤساء وبارونات !..** ، ايتراك . ١٩٩٧ م .

(٩) **القاهرة فى عصر إسماعيل** ، الدار المصرية اللبنانية . ١٩٩٨ م .

(١٠) **القاهرة بالفرشاة الأوروبية** ، وزارة الثقافة . ١٩٩٨ م .

(١١) **مملكة الأقطاب والدراويش** ، هيئة قصور الثقافه . ١٩٩٨ م .

(١٢) **رمضان فى الزمان الجميل** ، كتاب الجمهورية . ديسمبر ١٩٩٩ (١٣ طبعه) .

(١٣) **يهود مصر منذ عصر الفراعنه حتى عام ٢٠٠٠** ، الهيئة المصرية العامه للكتاب ، ٢٠٠١ م .

(١٤) **تحالف الحاخام .. والجنرال !..** ، الهيئة المصريه العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ م .

(١٥) **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات** ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٧م

(١٦) **إيلى كوهين فى دمشق** ، كتاب الجمهورية ، طبعتان ، مايو ، يونيو ٢٠٠٨م

(١٧) **القاهرة .. رحلة فى المكان والزمان** ، تقديم جمال الغيطانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠م

(١٨) **يهود مصر .. منذ الخروج الأول إلى الخروج الثانى** ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٠م

(١٩) **المحمل وأيامه** ، **كتاب اليوم** ، **مؤسسة أخبار اليوم** ، أكتوبر ٢٠١٢م

(٢٠) **أوروبيون فى الحرمين الشريفين** ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٤م

(٢١) **سحر مصر .. صور من الزمن المفقود** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٥م

(٢٢) **الإسكندرية فى عصرها الذهبى** ، سلسلة كتاب الهلال ، عدد ٧٧٤ ، القاهرة ٢٠١٥م

(٢٣) **القدس الأسير .. صراع الصورة والبندقية** ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، ٢٠١٥م

المحتوى